الباب الأول

الفرق الإسلامية في الشعر الأموى

١ ــ الفصل الأول : الشيعة

٢ ــ الفصل الثانى : الخوارج

٣ ــ الفصل الثالث : الزبيريون

٤ ــ الفصل الرابع : المتكلمون

الفصل الأول

الشيعة

١

يختلف الباحثون والمؤرخون فى تحديد الموقف الذى نشأت فيه الشيعة . فيذهب بعضهم إلى أن التشيع أقدم مذهب ظهر فى تاريخ الإسلام ، وأنه نشأ فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأن أربعة من كبار الصحابة قد لقبوا باسم الشيعة هم أبو ذر وسلمان والمقداد وعمار[١] .

ويذهب بعضهم إلى أن البذرة الأولى للشيعة هى الجماعة الذين رأوا بعد وفاة النبى أن أهل بيته أولى أن يخلفوه[٢] ويميل إلى هذا الرأى ما كدونالد فيذهب إلى أن بداية ظهور الشيعة كانت فى اجتماع السقيفة[٣] .

ولكن فريقاً آخر من الباحثين يذهب إلى أن الشيعة لم تظهر إلا فى عهد علىّ [٤] بينما لم تظهر بمعناها المذهبى إلا بعد هذا الوقت بكثير ، وعندما تم الأمر لمعاوية بنزول الحسن عن الخلافة بالذات[٥] .

ويحشد الذين يميلون إلى الرأى الأول كثيراً من الأدلة التاريخية تسند رأيهم منها أن النية اتجهت لمبايعة علىّ بعد وفاة الرسول من بعض القرشيين أمثال العباس وأبى سفيان[٦] ، وأن جماعة من الصحابة كانت ترى أن علياً أفضل

---

(١) أحمد عارف الزين / مختصر تاريخ الشيعة / ص ١٠ — ١١

(٢) أحمد أمين / فجر الإسلام / ص ٢٢٦ ، أحمد الشايب تاريخ الشعر السياسى ص ١٥٥ .

(٣) Development of Muslim Theology PP. 8-1o

(٤) ضياء الدين الريس / النظريات السياسية الإسلامية ص ٢٧ .

(٥) على وبنوه / ص ١٧٥ .

(٦) شرح نهج البلاغة / ج ٦ ص ٧ .

من أبى بكر وعمر وغيرهما ، وأن بين من كان يرى هذا الرأى عماراً وأبا ذر وسلمان الفارسى وجابر بن عبد الله وبنى العباس وأبى بن كعب وحذيفة وكثير غيرهم [١] .

ويروى أن علياً تلكأ فى مبايعة أبى بكر ستة أشهر لأنه كان يرى نفسه أحق بالأمر [٢] ، وقد خرج هذا الميل إلى علىّ إلى الجهر والإعلان يوم الشورى عندما جهر عمار والمقداد إلى ابن عوف بضرورة مبايعة على ، وتبادلا الشتائم مع أولئك الذين اقترحوا ترشيح عثمان من بنى أمية [٣] ووجد علىّ على ابن عوف واتهمه علناً بأنه ما ولى عثمان الأمر إلا ليرده إليه فيما بعد ، وأنه حباه — على حد قوله — حبو دهر [٤] .

وكلها أدلة تحاول أن تثبت أن تطلع علىّ إلى الخلافة بعد رسول الله ثم بعد مقتل عمر لم يكن إلا نتيجة لوجود فريق من المسلمين حوله يراه أحق بالأمر من سواه . ولكننا نلاحظ أن كلمة الشيعة لم تكن قد استخدمت بعد مضافة إلى علىّ للدلالة على هذا الفريق ، وبذلك لا يكون هناك تعارض ما بين هذا الرأى ورأى الذين يتأخرون بظهور الشيعة إلى زمن الصراع بين علىّ ومعاوية ، والذين يحتجون بما ذكره المرتضى من أن مذهب الرافضة قد حدث بعد مضى الصدر الأول ، وأنه لا يمكن أن نعد عماراً وأبا ذر والمقداد أسلافاً لهم لقولهم بإمامة علىّ ، وذلك لأنهم لم يظهروا البراءة من الشيخين ولا السب لهما ، ولأنهم عملوا لعمر بن الخطاب ، وأن أول من أحدث هذا القول عبد الله بن سبأ ولم يظهر قبله [٥] وأيضاً لا يتعارض هذا مع رأى الذين يتأخرون كثيراً بظهور الشيعة إلى الوقت الذى تم فيه الأمر لمعاوية ما دامت

---

(١) فجر الإسلام ص ٢٦٧ .
(٢) الطبرى جـ ٣ / ٢٠٢ .
(٣) الطبرى جـ ٥ / ص ٣٤ — ٣٦ ، مروج الذهب / جـ ٢ / ٢٣١ .
(٤) الطبرى جـ ٥ ص ٣٧ ، ابن الأثير جـ ٣ ص ٣٠ — ٣١ .
(٥) المنية والأمل / ٤ ، ٥ .

كلمة الشيعة غير محدودة المفهوم .

وفى اعتقادنا أن كلمة الشيعة لم تظهر مضافة إلى علىّ إلا بعد وقوع الفتنة ، ولم تدل على معناها المعروف عند الفقهاء والمتكلمين إلا بعد مقتل على ونزول الحسن عن الخلافة لمعاوية ، وإنما كانت الكلمة تدل على معنى آخر فى حياة علىّ هو نفس معناها اللغوى الذى جاء فى قوله تعالى[١]: «ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه » ، وفى قوله عز وجل[٢]: « وإن من شيعته لإبراهيم » واللفظ فى الآيتين وفى غيرهما من الآيات بمعنى الأنصار والأتباع الموافقين ، وعلى هذا تكون شيعة علىّ المسلمين الذين ناصروه واتبعوه ووافقوه ، وبهذا المعنى أيضاً كان لمعاوية شيعة رأته أحق بالأمر فناصرته واتبعته ووافقته ، وفى إبان الفتنة لم يكن للفظ معنى آخر وراء هذا المعنى أو أبعد منه ، فقد جاء فى صحيفة التحكيم بين علىّ ومعاوية «هذا ما تقاضى عليه علىّ بن أبى طالب ومعاوية ابن أبى سفيان ، قاضى علىّ على أهل الكوفة ومن معهم من (شيعتهم) من المؤمنين والمسلمين ، وقاضى معاوية على أهل الشام ومن كان معهم من (شيعتهم) من المؤمنين والمسلمين» بل إن الصحيفة أطلقت الكلمة على الفريقين معًا فسوت بينهما فى قولها : « وإذا توفى أحد الحكمين فإن أمير الشيعة يختار مكانه »[٣].

إذن لم يكن لكلمة الشيعة معناها الذى نعرفه لها عند المشتغلين بالعقائد قبل خلافة معاوية ، وإنما كان معناها إبان الفتنة ؛ الأنصار بالنسبة للخصمين جميعًا ، وعلى هذا فإننا نستطيع أن نلمح فى تاريخ هذه الفرقة التى عرفت بالشيعة بمعنى الكلمة الاصطلاحى ثلاثة أطوار ، كان الطور الأول منها فى

---

(١) سورة القصص آية ١٥ .

(٢) سورة الصافات آية ٨٣ .

(٣) محمد حميد الله الحيدر آبادى / مجموعة الوثائق السياسية فى العهد النبوى والخلافة الراشدة / ص ٢٨١ ، الطبرى جـ ٦ س ٣٣ .

حياة علىّ قبل الفتنة ، ولم تكن كلمة الشيعة موجودة على الإطلاق ، ولكن هذا لا يمنع وجود جماعة لا يربطها رابط إلا اعتقادها بأن على أول الناس بالخلافة تدعو إليه سواء أكان ذلك بعد وفاة النبى أم بعد مقتل عمر ، ويمكن أن يطلق على هذا الطور طور الدعوة .

وكان الطور الثانى طور العمل السياسى ، إذ أصبحت هذه الجماعة بمن انضم إليها أو بمن احتواها من أتباع عبد الله بن سبأ اليمنى اليهودى الأصل حزباً سياسيًّا بمعنى الكلمة ، وعلى الرغم من أن هذا الحزب قد رفع شعارات دينية تمثلت فى معتقدات الرجعة والتناسخ والوصية ، واستمداد الحكم من الله بالحق الإلهى ، فإن بواعث حركته كانت فى حقيقة الأمر سياسية محضة هدفها التخلص من حكم عثمان ، الأمر الذى نهض به بنشاط عبد الله ابن سبأ متنقلا بين الأمصار الإسلامية حتى انتهى به المطاف إلى مصر ، ومنها أخذ ينشر أفكاره التى ألبسها لباس الدين ، ومن مصر بعث بدعاته إلى كل مكان لنشر الدعاء لعلىّ ، واتهام من ناوؤوه وتحريك الأمة ضد عثمان والطعن على الأمراء وإظهار الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لاستمالة الناس ودعوتهم إلى مؤازرة علىّ [١] .

وقد ركن إلى ابن سبأ أولئك الذين كانوا يدعون لعلى ويرون أحقيته بالخلافة يوم السقفية ، ويوم الشورى مثل أبى ذر الغفارى[٢] وعمار بن ياسر الذى أرسله عثمان إلى مصر للتحقق من حركة التذمر عندما شعر بها ففضل البقاء فيها إلى جانب ابن سبأ [٣] . ولم يبذل ابن سبأ جهداً كبيراً فى استمالة بعض كبار المسلمين الساخطين على عثمان فى مصر كمحمد ابن أبى بكر ومحمد بن أبى حذيفة الذى كان يكتب على لسان أزواج النبى فيها الشكوى مما فعل عثمان ، ويقرؤها فى المسجد [٤] .

---

(١) الطبرى جـ ٥ ٩٨ — ٩٩ ، خطط المقريزى جـ ٢ ص ٣٣٤ .

(٢) الطبرى جـ ٥ ص ٦٦

(٣) الطبرى / ٥ ص ٩٩ تاريخ ابن خلدون جـ ٢ / ١٣٩ ، الخطط جـ ٢ ص٣٣٤.

(٤) الولاة والقضاة ١٤ ، الخطط جـ ٢/ ٣٣٥

وقد اختمرت ثورة الحزب وخرجت إلى دور العمل والتنفيذ فى الفترة التى شغل فيها والى مصر لعثمان فى غزوة ذات الصوارى سنة ٣٤هـ [١] وانتهت الثورة بمقتل عثمان بعد أن انضم إليها ثوار الكوفة الذين شايعوا الحزب وصاروا جزءاً منه بعد ذلك .

ولما تولى علىّ الخلافة تطور مذهب السبئية إلى الغلو الشديد فى علىّ حتى عدوه إلهاً ، وكانت النتيجة أن حرقهم فى النار فكانوا أيضاً يصيحون وقنبر مولاه يلقيهم فيها : « الآن صح عندنا أنه الإله » [٢] .

وأمر على بنفى عبد الله بن سبأ إلى ساباط المدائن ولما قتل علىّ أبى ابن سبأ أن يصدق أنه مات ، وزعم أن الذى مات شيطان على صورته ، وأن علياً صعد إلى السماء كما صعد عيسى ، وسينزل إلى الدنيا وينتقم من أعدائه [٣] ، وأنه فى السحاب وأن الرعد صوته والبرق سوطه ، وكان كل من سمع من السبئية صوت الرعد قال : عليك السلام يا أمير المؤمنين [٤] .

وكان المحكمة قد شقوا عصا الطاعة على الإمام وخرجوا عليه من قبل تحريق السبئية فلم يبق من حوله إلا أهل الكوفة الذين أصبحوا كلهم حزبه فى مواجهة حزب معاوية ، ثم كان ما كان من تثاقلهم عن نصرته وقتل علىّ وليس له شيعة منظمة من أهل العراق كشيعة معاوية من أهل الشام ، ولما تولى معاوية الملك فى دولة الإسلام كلها ولم يعد رئيس حزب ، أصبح لفظ الشيعة مقصوراً على أتباع علىّ ، ودخل فى هذا الاستعمال أيضاً تعارضهم مع الخوارج [٥] .

ولم يندمج أهل العراق فى وحدة الدولة الإسلامية إلا كارهين مرغمين

---

(١) سيدة الكاشف / مصر فى فجر الإسلام / ص ١١٦ .
(٢) الفرق بين الفرق / ٢٢٣ .
(٣) الفرق بين الفرق / ٢٢٣ .
(٤) المرجع نفسه .
(٥) فلهوزن الشيعة والخوارج ص ١٤٦ .

وبظواهرهم لا بقلوبهم ، ومن ثم أصبح على راية كفاحهم ضد ظلم أهل الشام ، لأنهم كانوا ينظرون إلى الفترة القصيرة التى كانت فيها الكوفة حاضرة الإسلام على أنها عصرهم الذهبى ولم يكن ذلك إلا تعبيراً عن الرأى السياسى فى الإقليم كله ، فكان جميع سكان العراق خصوصاً أهل الكوفة شيعة على تفاوت فيما بينهم وبخاصة بعد أن تحققت نذر علىّ لهم وتنبؤه بأن قعودهم عن نصرته سيجر عليهم الشر فندموا على تفريطهم وغلوا فى حبه وأسرفوا فى تعظيمه وإكباره عزاء عما قدموا له من الإساءة فى حياته ، وقد ساعد على نمو هذا الاتجاه مخالطتهم للفرس واندماجهم بنفوسهم التى ترسب فيها الولاء للملوك على اعتقاد أنهم مصطفون من الله لسياسة خلقه ، اعتقاداً بنظرية الحق الإلهى التى لم تعتنق كما اعتنقت فى عهد الدولة الساسانية [١] .

وعلى هذا النحو كان التشيع ، ولكنه لم يكن فرقة فارسية كما ذهب إلى ذلك دوزى [٢] وعلى هذا النحو سرى حب أهل العراق لعلىّ ، ورأوا فيه رمزاً لسيادتهم المفقودة ، وأذكى هذا الروح لما عرفوا عن الفرس وتمجيدهم لملوكهم ما عرفوا ، وبانضمام الموالى الباحثين عن المساواة كما أذكاه كراهيتهم التقليدية لأهل الشام منذ عهد الدولتين الفارسية والرومية والمناذرة والغساسنة والمضرية والقحطانية ، وأضافت السيادة الجديدة لأهل الشام ناراً جديدة إلى اللهب الذى اشتعل أواره رغبة فى التكفير عن خذلان الإمام وندماً على ما فرطوا فى حقه .

وقد كان من مظاهر هذا العداء بين أهل العراق وأهل الشام أن سكان العراق ظلوا طوال العصر يستجيبون لكل من يقودهم للثورة على بنى أمية . فخرجوا مع الحسين ، وكانوا جنوداً فى ثورة المختار ، وفى حرب مصعب ابن الزبير ، وفى خروج عبد الرحمن بن الأشعث على الحجاج وعبد الملك ومع يزيد بن على ضد هشام ومع ابنه يحيى فى عهد الوليد بن يزيد ، وأيضاً

---

(١) فجر الإسلام ص ١١١ .

(٢) الشيعة والخوارج ٢٤٠ .

ثاروا مع يزيد بن المهلب ضد الدولة .

وأنتج هذا كله ندماً وتلاوماً وإجالة للرأى فيما يمكن أن يكفر عن جريرتهم ولم تمض أعوام قليلة حتى أخذت وفودهم تفد إلى المدينة للقاء الحسن الذى كان قد تنازل عن الخلافة متأثراً بخذلان أهل العراق له ساخياً عنهم لقتلهم أباه وطعنهم له وانتهابهم لمتاعه[١] .

وقد أقبل عليه ذات يوم وفد من أشراف الكوفة فقال متكلمهم سليمان ابن صرد الخزاعى : «ما ينقضى تعجبنا من بيعتك معاوية ، ومعك أربعون ألف مقاتل من أهل الكوفة كلهم يأخذ العطاء ، وهم على أبواب منازلهم ومعهم مثلهم من أبنائهم وأتباعهم سوى شيعتك من أهل البصرة والحجاز فأعد الحرب جذعة ، وائذن لى فى تقدمك إلى الكوفة فأخرج عنها عاملها وأظهر خلعه وتنبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين » . فقال الحسن : « أنتم شيعتنا وأهل مودتنا فلو كنت بالحزم فى أمر الدنيا أعمل ولسلطانها أنصب ، ما كان معاوية بأبأس منى بأساً ولا أشد شكيمة ، ولا أمضى عزيمة ، ولكنى أرى غير ما رأيتم ، وما أردت فيما فعلت إلا حقن الدماء فارضوا بقضاء الله وسلموا الأمر والزموا بيوتكم وأمسكوا ، وكفوا أيديكم حتى يستريح بر ويستراح من فاجر[٢] » .

ويعتقد بعض الدارسين أن اليوم الذى لقى الحسن فيه هؤلاء الوفد من أهل الكوفة ورسم لهم خطتهم فيه هو اليوم الذى أنشئ فيه الحزب السياسى المنظم لشيعة علىّ وبنيه برياسة الحسن ، وفيه عاد أشرافهم بالخطة المرسومة ينتظرون الأمر بإثارة الحرب من الإمام المقيم فى المدينة[٣] .

ونحن لا نفسر انتظار الحسن إلا بأنه كان يتوقع ألا يعدل الناس به أحداً

---

(١) الطبرى جـ ٦ ص ٩٢ ، مروج الذهب جـ ٢ / ٣٠٦ .

(٢) الطبرى جـ ٦ ص ٩٢ ، تاريخ الخلفاء ١٩٢ ، اليعقوبى جـ ٢ / ص ٢٥٥ ، مناقب آل طالب جـ ٣ / ص ١٩٧ .

(٣) على وبنوه / ص ١٨٩ .

بعد وفاة معاوية ، ولكنه توفى سنة ٥٠ هـ ومعاوية لا يزال حيًّا . وقد نهج معاوية بعد استتباب الأمر له مع الحسن سياسة لينة ، ولكن هذا اللين لم يمنعه من أن يوحى إلى المغيرة بن شعبة أول من ولى على الكوفة أن يشتم عليًّا ويذمه ويترحم على عثمان ويستغفر له ، وأن يعيب على أصحاب علىّ ويقصيهم ويترك الاستماع إليهم وأن يرغم بعضهم على شهود هذا اللعن ،مما أثار طائفة من أخلص الشيعة وملأهم غيظاً ، فشغبوا على المغيرة فى المسجد وتبعهم الناس وكان زعيمهم فى هذا الشغب حجر بن عدى وكان من أصحاب علىّ وشيعته المخلصين له الحب ، وقد شهد معه الجمل وصفين والنهروان ، وكره صلح الحسن ولامه على تنازله وكان صالحاً ، وقد وفد على النبى مع أخيه هانئ ابن عدى وشارك فى فتح الشام والعراق وأبدى فى نهاوند شجاعة فائقة ورابط مع المرابطين فى الكوفة ينتظر أن يرتاح بر أو يستراح من فاجر ، ولكنه لم ينتظر بعد أن جاهر المغيرة بشتم علىّ ومدح خصومه فجاهر بشتم من مدحهم المغيرة وزكى من شتمهم ، وطالب المغيرة أن يؤدى إلى الناس ما أخر من عطائهم فهذا أنفع وأجدى [١] .

ولكن المغيرة كان يسوس الناس فى الكوفة سياسة ينظر فيها إلى نفسه فاتبع معهم الرفق والسماحة ، وترك لهؤلاء ولغيرهم من المعارضين قدراً من الحرية ، وكان يحتج إذا ما حدّث فى ذلك بأنه إنما يقتل بسياسته تلك الشاغبين عليه لأنه سيأتى بعده أمير يحسبونه مثله فيقتلهم عند أول وهلة وكأنه قد قر قراره على أن يدع سفك الدماء والشقاء به لغيره[٢] ، وكان المغيرة على حق فقد حدث ما توقعه إذ لم يكد زياد بن أبيه يصبح والياً على المصرين سنة ٥١هـ ، حتى سار فى الكوفة سيرة الجبابرة وطارد حجراً الذى شغب عليه بسبب امتناعه عن إمضاء القود لذمى قتله مسلم ، وكتب فى شأنه إلى معاوية فنصحه بأن ينتظر له أول حجة يقيمها عليه .

وقد طارده وطارد أتباعه الذين لحقوا ببنى قومه من كندة ، ولم تذعن كندة

---

(١) الطبرى/جـ ٦ ص ١٤٣ .

(٢) الطبرى / جـ ٦ ص ١٤٣ ، الأغانى/جـ ١٦ ص ٢ .

لأمر زياد بتسليمه على الرغم من استعانته عليها بقبائل اليمن، وخشى حجر أن يعرض قومه للأذى بسببه فأمرهم بإنعماد سيوفهم ولاذ بالفرار ، فكان يجد ملجأ حيث سعى ، فقد كان العطف العام فى جانبه وانتهى لدى أحد الأزديين وفقدت الشرطة أثره ، وحينئذ ألقى زياد التبعة على كندة وسيدها محمد بن قيس بن الأشعث وأنذره بأن يسلم حجراً فى ثلاثة أيام ، فنهض حجر بنفسه حينئذ وتقدم إلى زياد وأخذت عليه العهود بألا يحكم فى أمره وإنما يرسله إلى الخليفة يرى رأيه فيه، وحبسه زياد عشر ليال وطلب بقية أصحابه فأتى باثنى عشر لم ينكروا تشيعهم[١] وكانت تهمة حجر أنه وأصحابه جمعوا الجموع وأظهروا شتم الخليفة وخلعوا الطاعة وفرقوا الجماعة ودعوا إلى لعن معاوية وإلى الحرب والفتنة ونكث البيعة وخلع أمير المؤمنين وكفروا كفرة صلعاء[٢] ووقع وثيقة الاتهام سبعون رجلا ، ولم يتحرج زياد من أن يكتب توقيعات نفر لم يشهدوا ولم يحضروا الشهادة . ومن هؤلاء من كتب إلى معاوية يبرئ نفسه من هذه الشهادة مثل شريح القاضى الذى شهد فى كتابه إلى الخليفة بأن حجراً رجل صالح يقيم الصلاة ويؤتى الزكاة ويصوم ويحج ويعتمر وأن دمه حرام ، فلما قرأ معاوية كتابه لم يزد عن أن قال : أما هذا فأخرج نفسه من الشهادة وصدق معاوية على وثيقة الاتهام ، وأخلى سبيل ستة من أصحاب حجر ، ورغب فى العفو عن حجر والباقين لو تبرءوا من علىّ ، فقبل اثنان أظهر أحدهما البراءة من على بلسانه وشفع فيه بعض أهل الشام فحبسه معاوية ثم نفاه ، وأما الآخر فأبى أن يبرأ من علىّ وأسمع معاوية ما كره سماعه فرده إلى زياد ليقتله شر قتلة ، فأمر به فدفن حيًّا ، وأما الستة الباقون فقتلوا وكانوا أول من قتل صبراً فى الإسلام ، وقد ثبت جنان حجر وهو يرى الكفن معدًّا والقبر محفوراً والسيف مشهراً ثم تقدم لينحر بعد أن صلى ركعتين أطال فيهما الصلاة[٣] .

---

(١) الطبرى / جـ ٦ ص ١٥٠ .
(٢) الأغانى / جـ ١٦ ص ٧ .
(٣) مروج الذهب / جـ ٢ ص ٣٠٨ .

وقد ترك هذا الحادث أثراً كبيراً فى نفوس أهل الكوفة الذين شعروا بالخزى لأن قتل شخص بسبب خروجه على الدولة مهما يكن ما يبرره يثير ثائرة النفوس وبخاصة إذا شمل الأمر رجالا بارزين [١] وقد ذعر المسلمون لهذا الحدث حتى مزق الأسى قلوب الكثيرين وأظهرت السيدة عائشة غضبها الشديد وهمت بالخروج وأرسلت إلى معاوية من يراجعه ولكنه وصل بعد فوات الأوان ، وكذلك غضب الحسن البصرى ، وأطلق عبد الله بن عمر حبوته وانطلق والناس يسمعون نحيبه ،وتألم ربيع بن زياد والى خراسان واستنكر هذه الفعلة معاوية بن حديج فى أفريقية عندما قال لقومه من بنى كندة : ألا ترون أنا نقاتل لقريش ونقتل أنفسنا لنثبت ملكها ، وهم يثبون على بنى عمنا فيقتلونهم » ، وقد تجلى هذا الغضب فى شعر الكوفيين الذى تعج به كتب السير والتاريخ [٢] .

وكان تأثير هذا الحادث فى نفوس الشيعة أشد خطراً ، إذ ملأهم بالحقد والغضب ،وساندهم المسلمون جميعاً وبخاصة قبائل اليمن التى شعرت بالخزى لعجزها عن أن تخلص أبناءها من بطش السلطان ، واتحدت معارضتها مع معارضة الشيعة فى ذلك الوقت .

وكان لهذا الحادث ولأخذ معاوية البيعة لابنه يزيد بعد ذلك أكبر الأثر فى قوة أمر الشيعة وانتشار دعواهم ،ومما يدل على خطر هذا الحادث وعظم تأثيره فى المسلمين أن الحسن البصرى كان يقول : أربع خصال كن فى معاوية لو لم يكن فيه منهن إلا واحدة لكانت موبقة : انتزاؤه على هذه الأمة بالسفهاء حتى ابتزها أمرها بغير مشورة منهم ، وفيهم بقايا الصحابة وذوو الفضيلة ، واستخلاف ابنه بعده سكيراً خميراً يلبس الحرير ويضرب بالطنابير ،وادعاؤه زياداً ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الولد للفراش وللعاهر الحجر » ، وقتله

---

(١) الشيعة والخوارج ص ١٥٩ .

(٢) انظر فى ذلك : الطبرى ج ٦ ص ١٥٧ ، الأغانى ج ١٦ ص ١٠ ومروج الذهب ج ٢ / ص ٣٠٨ .

حجر ، ويل له من حجر وأصحاب حجر ، ويل له من حجر وأصحاب حجر »[١] .

وقد آل أمر الشيعة إلى الحسين بن على الذى كان كره ابتداء صلح أخيه وهم أن يعارض فأنذره الحسن وأشار عليه بالوفاء والطاعة ، فظل فى المدينة يتحرق إلى الفرصة التى تتيح له استئناف الجهاد من حيث تركه أبوه ، فلما قتل حجر ونقض معاوية صلحه مع الحسن فى ترك الأمر شورى من بعده بأخذ البيعة لابنه يزيد ، غير الحسين سياسة المهادنة فأطلق لسانه فى معاوية وولاته حتى أنذره معاوية وأغرى الحسين الشيعة بالاشتداد فى الإنكار على الأمراء . ومات معاوية والدعوة الشيعية قد كسبت فى الأعوام العشرة الأخيرة من حكمه نجاحا بعيداً فى شرقى الدولة وفى جنوبى بلاد العرب ، حتى كان الناس وعامة أهل العراق بنوع خاص يرون بغض بنى أمية وحب آل البيت لأنفسهم ديناً . وقد أحيا موت معاوية الأمل فى نفوس الشيعة ؛ فما إن ولى يزيد حتى أرسل إلى عامله بالمدينة أن يأخذ له البيعة من كبار الصحابة وأبنائهم فى الحجاز وكان أن امتنع عبد الله بن الزبير وفر إلى مكة ، وكذلك سار الحسين إليها ولم يبايع ليزيد ، وكاتبه الشيعة بالكوفة فاجتمعوا فى منزل سليمان بن صرد وأرسلوا إليه كتاباً جاء فيه « إنه ليس علينا إمام فاقدم علينا لعل الله أن يجمعنا بك على الهدى فإن النعمان بن بشير فى قصر الإمارة ولسنا نجتمع معه فى جمعه ولا نخرج معه إلى عيد ولو قد بلغنا مخرجك أخرجناه من الكوفة وألحقناه بالشام »[٢] واتبعوا هذا الكتاب بكتب أخرى ذكروا فيها أسماء الشيعيين الذين حضروا الاجتماع وطلبوا منه أن يبادر بالقدوم إلى الكوفة[٣] .

ومنح الحسين هذه الكتب مزيداً من عنايته فقد كان أصحاب الرسائل

---

(١) الطبرى جـ ٦ ص ١٥٣ .
(٢) الأخبار الطوال ٢٣٤ .
(٣) الإمامة والسياسة جـ ٢ ص ٣ ، ٤ .

رجالا بارزين من القبائل وبخاصة اليمانية ، وقد كانت أكبر القبائل عدداً وأهمية فى الكوفة[١] وقد قيل إن الحسين تسلم نحواً من مائة وخمسين كتاباً من مختلف الجماعات[٢] . ومالت نفس الحسين إلى تلبية هذه الدعوة الملحة ولكنه آثر أن يبعث أولا من يتحقق له من الأمر ويتحسس له الأرض ويمهدها أمامه فإن أنس منهم نية صادقة وعزيمة مصممة ونصحاً لآل علىّ أخذ منهم البيعة مستبراً ، وعهد الحسين إلى ابن عمه مسلم بن عقيل بهذه المهمة فسار إلى الكوفة وهناك التف حوله كثير من الشيعة وبايعوه على النصر ، وفى مدة قليلة جمع إليه آلافاً من الشيعة وكثيراً من الأموال والسلاح وجرى كل شىء على ما يرام حتى إن مسلماً اغتر بما شاهده وأرسل إلى الحسين يستحثه على القدوم إلى الكوفة ، واشتبه النعمان بن بشير فى الأمر ولكنه سار فيهم سيرة رجل من أصحاب رسول الله رفقاً ونصحاً ودعوة إلى الطاعة والوفاء ببيعة يزيد ، ولكن يزيد عده متهاوناً فعزله واستبدل به عبيد الله بن زياد والى البصرة على مشورة سرجيوس مولى أبيه فجمع له المصرين كما جمعهما من قبل معاوية لأبيه فأخذ الشيعة بالشدة كما فعل أبوه ، ونهض بالأمر فى حزم وطلب مسلماً وجد فى طلبه وهدد من يخفيه بالصلب ، فتفرق الناس عن مسلم حتى استجار بهانئ بن عروة المرادى ونمى خبره إلى عبيد الله فأحضره وما زال به حتى أقر بإجارة مسلم فحبسه وهاج بنو مذحج لحبسه ، ولما علم مسلم بما حدث عجل بالخروج فجمع صحبه وسار بهم إلى السوق وانطلق عبيد الله إلى المسجد يثبط الناس من حول مسلم ، وفى المساء كان الناس قد تفرقوا وخلفوا مسلماً وحيداً شريداً يهيم فى سكك الكوفة حتى لم يجد إلا بيت أرملة التجأ إليه وكان ابنها مولى لمحمد بن قيس ابن الأشعث فأبلغ ابنها سيده فبعث عبيد الله صاحب شرطته ومعه رجاله فأحاطوا بالدار فلم يبلغ منه ثم أعطى له الأمان وأخذ إلى عبيد الله مجرداً

---

(١) الشيعة والخوارج ص ١٦٠ .

(٢) تاريخ الإسلام السياسى جـ ١ ص ٤٣١ .

من سلاحه حيث أمر بقتله فطلب أن يوصى لعمر بن سعد بن أبى وقاص وأذن له ثم ذبح فوق القصر وألقى بجثته من حالق وقتل هانئ بن عروة وصلب القتيلان معاً نكالا وأرسل برأسيهما إلى يزيد فى دمشق[١] .

وكان كتاب مسلم[٢] قد وصل إلى الحسين قبل مقتله بشهر ، ووافق اليوم الذى خرج فيه مسلم ثائراً انتقال الحسين من مكة ، وقد صادف خروج الحسين من مكة ارتياحاً من شخص واحد فقط فى الحجاز هو عبد الله بن الزبير [٣] بينما أصم الحسين أذنيه عن سماع نصح الناصحين وتحذير المحذرين بطش ابن زياد وبأس يزيد وغدر أهل الكوفة . فصمم على الخروج ورفض أن يقبل نصيحة عبد الله بن عباس بأن يسير إلى اليمن[٤] كما رفض الاستجابة لنصيحته بألا يصحب معه نساءه وصبيته ولم يلتفت إلى كل هذا مؤمناً أنه إن أقام ولم يخرج فسيتعقبه بنو أمية بالقتل فى الحجاز .

وسار الحسين على رأس فئة قليلة من ثمانين رجلا من آله ولم يكن قد علم بعد بمقتل مسلم بن عقيل وخذلان الشيعة له ولكنه علم بالأمر عندما دنا من الكوفة فود أن يعود أدراجه ولكن إخوة مسلم طالبوه بالمضى ليثأروا لقتيلهم فنزل على رأيهم .

وكان ابن زياد قد رصد له المراصد وأمّر رجلا من أشراف الكوفة يقال له الحرّ بن يزيد على ألف من الجند وأمرهم بأن يلقوا الحسين فيأخذوا عليه طريقه وكان وقد وقع فى يد ابن زياد رسول الحسين ومعه كتاب أرسله إلى مسلم وهو فى الطريق إليه قبل أن يعلم بمقتله فأمر ابن زياد الحصين بن تميم رسول الله، الحسين بأن يصعد القصر فيسب الكذاب بن الكذاب ولكن الحصين صعد ليقول : «أيها الناس إن هذا الحسين بن علىّ خير خلق الله، ابن فاطمة بنت رسول الله،

---

(١) الطبرى جـ / ٦ ص ١٩٤ — ٢١٥ .
(٢) الأخبار الطوال / ٢٥٦ .
(٣) الكامل فى التاريخ / جـ ٣ ص ١٧ .
(٤) الطبرى /جـ ٦ ص ٢٢٥ .

وأنا رسوله إليكم وقد فارقته عند الحاجز فأجيبوه » ثم لعن ابن زياد وأباه واستغفر لعلى ، فأمر عبيد الله به أن يرمى من أعلى القصر فرمى به فتقطع ومات ، وعلم الحسين بخبر رسوله عند موضع يعرف بالثعلبية على مشارف الكوفة فتقدم إلى أصحابه بأن ينصرف منهم من أراد الانصراف ، فتفرق عنه من كان انضم إليه من العائدين من الحج من الكوفيين ، وعدد من البدو عند مواطن المياه ، وبقى فيمن خرج بهم من المدينة[1] . وسار الحسين حتى بلغ ماء ذى حسم وعسكر وتحصن بأرض مرتفعة ، وهناك اعترض طريقه الحر بن يزيد التميمى الذى حال بينه وبين الرجوع إلى المدينة وأخذ يسايره حتى يأتى أمر ابن زياد ، وفى نينوى على الفرات أتى رسول ابن زياد بأن ينزل الحسين فى العراء فى غير حصن وعلى غير ماء ففعل كما أمر ، ونزل الحسين موضعاً بلا ماء غير بعيد من الفرات فى سهل كربلاء ، ولما كان الغد وافاهم عمر بن سعد بن أبى وقاص من الكوفة على رأس أربعة آلاف . وكان ابن سعد قد استعفى عبيد الله فاشترط عليه أن يرد عن ولايته إن اسعتفى فاضطر كارهاً إلى السير لحرب الحسين ، وسار عمر بن سعد إلى كربلاء حيث بعث رسولا إلى الحسين يسأله فيم قدومه ؟ وأجاب الحسين بأنه أتى إجابة لما كتب إليه به أهل الكرفة فإذا كرهوه فإنه ينصرف عنهم ، وأبلغ ابن سعد هذا الجواب لعبيد الله فأجاب بأن يعرض على الحسين أن يبايع يزيد بن معاوية وأن يسلم نفسه وإلا استعمل ابن سعد القوة معه فإن تردد ابن سعد فى ذلك فعليه أن ينزل عن القيادة لحامل الرسالة شمر بن ذى الجوشن القيسى ، وأبى الحسين أن يستجيب لما عرض عليه ، وفى العاشر من المحرم سنة ٦١ هـ انتظم كل فريق استعداداً للقتال ، وفى صف الحسين اثنان وثلاثون فارساً وأربعون راجلا منهم ثمانية عشر من أبناء عمومته ، وزحف عمر بن سعد على الحسين وأصحابه فقاتلوهم نصف النهار وأبلى الحسين وصحبه أعظم البلاء فلم يقتلوا حتى قتلوا أكثر منهم ، ورأى الحسين المحنة كأشنع ما تكون المحن

---

(١) الطبرى / ج ٦ ص ٢٢٥ .

فهؤلاء إخوته وأهله يقتلون بين يديه وفيهم بنوه وبنو أخيه وبنو عمه ، وكان الحر ابن يزيد قد ثاربه ضميره فانضم فى نفر معه إلى صف الحسين ، وكذلك انضم إلى صفه جماعة من جيش ابن سعد ضائقين برفض ابن زياد لما عرضه الحسين من شروط للصلح ، وكفارة عن مسلكهم السابق معه فقاتلوا بين يديه حتى قتلوا . أما الحسين فلم يجسر أحد على قتله إلى أن قام شمر بإبعاد الحسين عن معسكر النسوة والأطفال وهناك انقض عليه الكثيرون طعناً وضرباً حتى أصابوه بثلاث وثلاثين طعنة ، وأربع وثلاثين ضربة وسلبوه ما كان عليه حتى تركوه بالعراء ، وقد اشترك فى قتله زرعة بن شريك وأبو الجنوب بن زياد بن عبد الرحمن الجعفى ، والقشعم ، وصالح بن وهب اليزنى وخولى بن يزيد وسنان بن أنس النخعى وشمر بن ذى الجوشن الضبابى[١] وسبى القتلة النساء سبى الرقيق وفيهم زينب بنت فاطمة حتى إن المرأة كانت لتنازع ثوبها عن ظهرها حتى تغلب عليه فيذهب به منها[٢] ودفن شهداء كربلاء بعد أن احتزت رؤوسهم وسرح باثنين وسبعين رأساً إلى عبيد الله بن زياد ، ورفق ابن زياد بالنساء استخزاء من قول علىّ بن الحسين وكان صبياً وقد هم ابن زياد بقتله « إن كانت بينك وبين هؤلاء النسوة قرابة فأرسل معهن إلى الشام رجلا تقياً رفيقاً » ، هنالك تذكر ابن زياد أن أباه يدعى لأبى سفيان فاستحيا ولم يقتل الصبى وأرسله وسائر أهله إلى يزيد كما أرسل إليه برؤوس القتلى ، وقد لذ ليزيد أن ينكث فى ثغر الحسين بقضيب كان فى يده وهو يتمثل :

يفلقن هاماً من أعزة علينا وهم كانوا أعق وأظلما

وزعم الرواة أن أبا برزة صاحب رسول الله كان شاهداً فقال ليزيد لا تفعل ، فربما رأيت شفتى رسول الله صلى الله عليه وسلم على هذا الثغر مكان هذا القضيب وقد رفق يزيد بالنساء وجهزهن وردهن إلى المدينة ، وزعم

---

(١) مقاتل الطالبيين / ١١٩ .

(٢) الطبرى ج ٦ / ٢٢٠ .

الرواة أيضاً أن يزيد ندم على قتل الحسين ، وتبرأ من قتله وألقى عبء الإثم على ابن مرجانة عبيد الله بن زياد ، ومن قبل قتل معاوية حجر بن عدى وأصحابه وألقى العبء على زياد قائلا حملنى ابن سمية فحملت [١] .

وكان لمقتل الحسين فى أرض كربلاء التى لطخت بدم آل البيت أثر بعيد فى إذكاء نار التشيع وفى توحيد الشيعة ، والانتقال بمبادئهم من طور النظر إلى طور العمل . فقد كان قبل مقتله رأياً سياسيًّا نظريًّا فصار بعده ممتزجاً بدمائهم متغلغلا فى قلوبهم ، راسخاً فى نفوسهم ، كما أدى إلى انتشار التشيع بين الفرس أصهار الحسين [٢] . فقد كانوا يرونه أحق بالخلافة هو وأولاده من بعده لأنهم يجمعون بين أشرف دم عربى وأنقى دم فارسى ، ولهذا فقد أصبح الموقف مشحوناً وعلى وشك الانفجار ، ويتبين هذا من أن ابن زياد ارتقى المنبر بعد الحادث وخطب خطبة جاء فيها : « الحمد لله الذى أظهر الحق وأهله ونصر أمير المؤمنين يزيد وحزبه وقتل الكذاب بن الكذاب وشيعته » فقام عبد الله بن عفيف وفند قوله بكلمات مملوءة حنقاً ومفعمة سخطاً على بنى أمية وأعوانهم من مثل قوله : « يا عدو الله إن الكذاب أنت وأبوك والذى ولاك وأبوه تقتل أولاد النبيين وتقوم على المنبر مقام الصديقين ؟ » [٣] .

وقد عالج المؤرخون أثر مقتل الحسين فأجمعوا على أنه كان له أكبر الأثر فى إسخاط الشيعة وعامة المسلمين وإثارة الأسى والحزن فى نفوسهم وإذكاء الحماس فى نفوس الفرس ، يقول نيكلسن : « إن جميع المؤرخين الإسلاميين الذين يكادون يجمعون — مع استثناء القليل النادر منهم — على بغض الأمويين والعداء لهم يعدون الحسين بن على شهيداً فى الوقت الذى يعدون فيه يزيد ابن معاوية سفاكاً ، على حين يرى جمهرة المؤرخين المحدثين رأى سير وليم مور الذى يذهب إلى أن الحسين بانسياقه إلى تدبير الخيانة سعياً وراء

---

(١) راجع فى مقتل الحسين الطبرى ج / ٦ ص ٢١٥ وما يليها.
(٢) الدعوة إلى الإسلام / ص ١٨١ .
(٣) الفاطميون فى مصر / ص ٣٣ .

العرش ارتكب جريمة هددت كيان المجتمع وتطلبت من أولى الأمر فى الدولة الأموية التعجيل بقمعها ، وكانت هذه بطبيعة الحال وجهة نظر الفريق الذى بيده النفوذ والسلطان ، وأما حكم التاريخ فى هذا الموضوع إذا تصدينا لبحثه وتمحيصه ، فلن يعدو أن يكون حكم الدين على الملكية أو قضاء الحكومة الدينية على الدولة العربية ، وعلى هذا الأساس يحكم التاريخ بحق بإدانة الأمويين ، على أنه يجدر بنا أن نذكر أن انفصال الدين عن الحكومة لا وجود له فى نظر المسلمين ، وقد اتخذ بنو أمية من يوم كربلاء سبباً كافياً يدعوهم إلى أن يندموا على ما فرطت أيديهم . إذ أن هذا اليوم وحد صفوف الشيعة ، فصاحوا صيحة واحدة : الأخذ بثأر الحسين . هذا النداء الذى دوى فى كل مكان ، وعلى الأخص عند الموالى من الفرس الذين تاقوا إلى الخلاص من نير العرب »[1] .

وواضح أن هؤلاء المؤرخين يغفلون أن الحسين لم يمض مصمماً على الحرب ولكنه عرض للصلح ثلاث خصال رفضت جميعاً ، فلم يكن ما وقع إلا تجبراً وظلماً ونتيجة خطأ التدبير من ولى الأمر ، إذ ظن ابن زياد أنه يجتث الشر بقتل الحسين فيوئس الشيعة ويضطرها إلى الإذعان ، ولكنه بذر فى هذا اليوم بذور السخط التى ثلت عرش الأمويين فيما بعد .

وتمت بهذه المذبحة محنة لآل البيت لم يمتحن بمثلها مسلم ، كما لم يمتحن بمثلها الإسلام ، فقد خولف فيها عما هو مألوف من الأمر بالمعروف والرفق والنصح وحقن الدماء إلا بحقها وانتهاك أحق الحرمات بالرعاية وهى حرمة رسول الله التى كانت تفرض على المسلمين أن يتحرجوا أشد التحرج ولما يمض على وفاة النبى غير خمسين عاماً فإذا أضيف إلى هذا أن الناس تحدثوا فأطالوا الحديث وألحوا فيه بأن الحسن مات مسموماً لتخلص الطريق ليزيد إلى ولاية العهد عرف أن أمور المسلمين قد صارت أيام معاوية وابنه إلى شرما يمكن

---

(١) Litt. Hist. of Arabs. PP. 197-198.

أن تصير إليه[١] . ووقع الشيعة أثر ذلك فريسة لتأنيب الضمير والإحساس العارم بالخزى لإسلام الحسين وخذلانه كما خذل أبوه من قبل وزاد هذا الشعور ما أبرزه المؤرخون من التعارض بين سلوك المكلفين بحمايته من الذين استقدموه ولم يفعلوا شيئاً من هذا ، وبين غير المكلفين الذين أخجلوا الأولين وتجاسروا على اللحاق به فشاركوه مصيره بمدافع من الحمية الإنسانية . وقد عرض المؤرخون هذا عرضاً دراميًّا كما أبرزوا موقف الأشراف الذى اقتصر على الاحتفاظ بمراكزهم وعلى صيانة المنافع المحدودة لمدينتهم وقبائلهم ، فعلى الرغم من أن ميولهم كانت ضد الحكومة فقد وضعوا نفوذهم تحت إمرتها لتوطيد الهدوء فى القبائل إذ قاموا بدور الشرط صنيع محمد بن قيس بن الأشعث وغيره[٢] .

وهكذا يبدو أن مقتل الحسين فتح عصراً جديداً لدى الشيعة وأنهم نظروا إليه على أنه أهم من استشهاد أبيه ، فكان شعور الذين طال بهم تأنيب الضمير بالحاجة إلى التفكير عن الكارثة التى جروا إليها الحسين عظيما ومؤلماً ، وشعروا بالحاجة الملحة إلى إرضاء ربهم بالتضحية بنفوسهم لتخليصها من الإثم فسموا أنفسهم بالتوابين ، وبدءوا ينظمون أنفسهم لأول مرة وكان أساس هذا التنظيم حوالى مائة رجل لم يكن فيهم من هو دون الستين من العمر وولوا أمرهم سليمان بن صرد الخزاعى وكان على رأس الذين دعوا الحسين إلى الكوفة ، وعاون سليمان فى الأمر رؤساء أربعة يجتمعون كل يوم جمعة فى منزله ليسمعوا منه فى كل مرة نفس الخطبة التى صارت بمثابة قسم على الثأر والتفكير : «كونوا كالألى من بنى إسرائيل إذ قال لهم نبيهم : إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ، ذلكم خير لكم عند بارئكم ، فما فعل القوم ؟ جثوا على الركب والله وقدّوا الأعناق ورضوا بالقضاء حتى حين علموا أنه لا ينجيهم من عظيم الذنب إلا الصبر على القتل ، فكيف بكم لو قد دعيتم إلى مثل ما دعى القوم إليه ؟ اشحذوا السيوف وركبوا الأسنة

---

(١) على وبنوه / ص ٢٤٥

(٢) الشيعة والخوارج ص ١٨٣ .

وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل حتى حين تدعوا وتستنفروا»[١] .

وبقيت الحركة سرية حتى توفى يزيد بن معاوية فانطلقت من عقالها ، وطرد الشيعة نائب ابن زياد عن الكوفة ، واتسعت الحركة مع ازدياد الاضطراب الناجم عن تعدد الولاة ، إذ ولى الكوفة عمر بن سعد بن أبى وقاص ثم وليها آخر للأمويين ، وكان ابن الزبير قد وطد لنفسه فى العراق وبايعه أشراف الكوفة مرغمين ، فبعث بعبد الله بن يزيد الأنصارى والياً على الكوفة من قبله ، وازدادت شجاعة الشيعة وانتشرت دعوتهم على أوسع نطاق ، وعمل الدعاة على اجتذاب عواطف الجماهير ، وبرز فى مقدمتهم عبيد الله بن عبد الله المرّى الذى كان يثير الناس بمثل قوله : « ابن أول المسلمين إسلاماً وابن بنت رسول رب العالمين ، قلّت حماته وكثرت عداته حوله فقتله عدوه وخذله وليه فويل للقاتل وملامة للخاذل ، إن الله لم يجعل لقاتله حجة ولا لخاذله معذرة إلا أن يناصح الله فى التوبة فيجاهد القاتلين وينابذ القاسطين ، فعسى الله عند ذلك أن يقبل التوبة ويقيل العثرة إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه والطلب بدماء أهل بيته ، وإلى جهاد المحلين والمارقين فإن قتلنا فما عند الله خير للأبرار وإن ظهرنا رددنا الأمر إلى أهل بيت نبينا »[٢] وقد أنتج هذا الدعاء عدداً كبيراً أقسم على الولاء ، واتصالات ناجحة مع المدائن والبصرة وأموالا وسلاحاً جمعا بنشاط كبير ، وكان شعار التوابين « يالثارات الحسين» . ولكنهم وإن كان لهم شعار واضح فلم يكن لهم فى الحقيقة هدف بنفس الوضوح ، إذ كان الاتجاه العام للحركة يميل إلى الانتقام من الأشراف الذين تسببوا فى إسلام الحسين وخذلانه بتواطئهم مع السلطة ، ولكن سليمان آثر أن يتجه الانتقام إلى المسئولين الحقيقيين مباشرة[٣] وكان ابن زياد قد انتقل إلى الشام واستعد هناك بجيش عظيم ليتسنى له إخضاع العراق

---

(١) الطبرى جـ ٧ / ٦٠ .
(٢) الطبرى جـ ٧ / ص ٦٢ .
(٣) الطبرى جـ ٧ / ص ٦٨ .

لمروان بن الحكم الذى صار خليفة للمسلمين بعد مؤتمر الجابية ومعركة مرج راهط التى كسبتها اليمانية لبنى أمية قبائل قيس المؤازرة لابن الزبير . ورأى والى الكوفة للزبيريين أن يفيد من حركة الشيعة التوابين فى ضرب الأمويين الذين لم يلبثوا حتى يقاتلوه فساعد الحركة وظاهرها وأبى أن يصغى لمشورة الأشراف بضربها ، وتجاوز كل حد عندما صرح للتوابين بأنه لهم على قاتل الحسين ظهير[١] وأصبح الشيعة وهم لا يخشون بأساً من السلطة الزبيرية فى الكوفة وإن كانوا رفضوا أن يتحالفوا معها ضد أهل الشام[٢] فأخرجوا أفكارهم إلى حيز التنفيذ وبادروا إلى العمل فاتعدوا أول ربيع الثانى سنة ٦٥ هـ فى معسكر النخيلة قرب الكوفة ودعوا أنصارهم من المدائن والبصرة واجتمع هنالك أربعة آلاف فحسب من المؤتمرين على الرغم من أن عدتهم كانت ستة عشر ألفاً[٣] ولكن من تجمعوا فى النخيلة كانوا عدداً كافياً للقتال ولم يكن فيهم أحد من الموالى[٤] إذ يبدو أن المختار بن عبيد الله قد استأثر بهم جميعاً فى دعوته لمحمد بن الحنفية بعد لقائه .

وبعد خمسة أيام من تجمعهم ساروا إلى كربلاء ، وهناك أقاموا على قبر الحسين يوماً وبعض يوم يقرون بخطئهم ويتعهدون باكين على الثأر ، وساروا إلى قرقيسيا حيث قدم لهم زفر بن الحارث الكلابى زعيم القيسية المعارضة لبنى أمية ما احتاجوا إليه من خدمات ، وأخبرهم بتحركات جيش الشام وأشار عليهم بأن يعمدوا إلى مبادرة عدوهم إلى عين الوردة لتكون ظهورهم إلى المدينة والماء بين أيديهم وتكون المنطقة بينهم وبين قرقيسيا منطقة أمان يتكلف هو بحمايتها لهم[٥] وقد أخذوا برأيه واستراحوا أياماً خمسة قبل أن تهاجمهم فرقتان من جيش الشام الخمس ، وجرت فى هذه الأيام مفاوضات مع قائد الجيش

---

(١) الطبرى جـ ٧ ص ٥٤ .
(٢) الطبرى جـ ٧ / ٦٥ — ٦٧ .
(٣) الطبرى ٧ ص ٦٦ .
(٤) الشيعة والخوارج ص ١٩٥ .
(٥) الطبرى / جـ ٧ ص ٦٧ .

الحصين بن نمير السكونى ، وعرض عليه التوابون ثمناً لحقن الدماء تسليم عبيد الله بن زياد ليقتلوه ثأراً بالحسين وخلع عبد الملك وإخراج آل الزبير من العراق ورد الحكم إلى أهل بيت النبى . ولم يكن ممكناً أن يجيبهم إلى واحدة منها بطبيعة الحال فبدأ القتال فى الثانى والعشرين من جمادى الأولى سنة ٦٥ هـ واستمر ثلاثة أيام قاتل فيها الشيعة قتالا عنيفاً ، ولكن جيش الشام عمد إلى رمى النبال فقضى على التوابين ولم ينج منهم إلا قليل[١] ووخز الألم نفس هذا الفلّ ، فلم يكادوا يلتقون بإخوانهم من أهل البصرة والمدائن الذين جاءوا متأخرين حتى قرروا العودة معهم إلى القتال ولكن الأوان كان قد فات ، فبكى الجميع وانصرفوا بعد ذلك عائدين إلى الكوفة يثقلهم الشعور بالخطيئة أكثر مما تشغلهم الرغبة فى الانتقام ، وبرزت فى هذا الوقت شخصية كان لها أبعد الأثر فى تحول تاريخ الشيعة تحولا حاسمًا وهى شخصية المختار ابن عبيد الله الثقفى ، وكان أبوه أول منتدب لحرب العراق عقب هزيمة المسلمين يوم الجسر فى فتح العراق ، وكان المختار من أسرة كريمة ، تزوج عبد الله بن عمر بن الخطاب أخته كما كان صهراً للنعمان بن بشير وله بيت فى الكوفة وضيعة فى ضواحيها ، وعلى الرغم من الغموض الذى يحيط بحياته قبل لمعان شخصيته فى ميدان السياسة وبين الشيعة فإننا يمكن أن نلقى بعض الضوء على شخصيته الغريبة التى جهلها المؤرخون العرب نتيجة لوقوفه إلى جانب الموالى ، وقد تنوع نشاط المختار السياسى حتى ليصح أن يكون بحق مرآة للعصر الأموى ، لأن تاريخه فى الحقيقة هو تاريخ الأحزاب السياسية والفرق الدينية فى هذا العصر[٢] .

وكان أول عهده بالحياة السياسية لزومه عمه سعد بن مسعود والى المدائن بعد أن شهد مع أبيه قتال الفرس يوم البويب ، وقد كان بحكم منصب عمه أمويًّا عثمانى الهوى[٣] وإن لم يكن مخلصاً إلا لنفسه فى الحقيقة فقد كان

---

(١) ابن الأثير / جـ ٤ ص ٧٣ – ٧٤ .
(٢) المختار الثقفى ص ٥ .
(٣) أنساب الأشراف جـ ٥ / ٢١٤ .

مغامراً يبحث عن الغنى والمجد ، وقد أوعز إلى عمه أثناء التفاوض الذى حدث بين الحسن ومعاوية أن يثب فيوثق الحسن عند نزوله المقصورة البيضاء فى المدائن ويستأمن به إلى معاوية ، وقد أنكر عليه عمه هذا الرأى[١] ، ونراه بعد ذلك يرجع عن نزعته الأموية ويصير شيعيًّا غيوراً فيحجم ويسخط على إجازة اتهام حجر بن عدى ويروغ من زياد[٢] ثم نراه بعد ذلك متهماً أمام عبيد الله بن زياد بإيواء مسلم بن عقيل فى الكوفة ، وكانت مصاهرته للنعمان بن بشير دافعاً للنعمان إلى التغاضى عن مسلم والمختار ، وقد تسبب هذا الإغضاء فى عزله عن ولاية الكوفة ، وسجن المختار وشترت عينه بقضيب ابن زياد ، وظل سجيناً حتى شفع له صهره عبد الله بن عمر ، فنفى خارج الكوفة ومن منفاه تحول إلى الحجاز فارًّا إلى ابن الزبير وهو يتوعد ابن زياد[٣] واستقر به المقام فى مكة ولكنه لم يصادف طلبته لدى ابن الزبير ، ففارقه إلى الطائف فأقام عاماً كاملا فيها يترقب الأحداث[٤] وكانت أحداث كثيرة قد وقعت فى هذا العام غيرت من رأى ابن الزبير فقبل أن يعمل له المختار على أمور اشترطها المختار عليه[٥] واشترك مع ابن الزبير فى قتال بنى أمية والزود عن الكعبة ولكنهما اختلفا بسبب رفض ابن الزبير الخروج إلى الشام مع الحصين بن نمير القائد الأموى لأخذ البيعة له هناك بعد وفاة يزيد بن معاوية ، ولامتناعه عن توليته العراق خوفاً من أن يستبد بالأمر لنفسه وهو يعلم ميوله الشيعية ، فقرر المختار الرحيل إلى العراق إذ كانت الأنباء تصل إليه بأن الشيعة مجمعون على الثأر للحسين ، ولكنهم لا يجدون الزعيم الذى يجمعهم ويلم شملهم ، فاحتال ابن الزبير موهماً إياه بأنه معنى بكسب مساندة الشيعة للزبيريين فى حربهم ضد بنى أمية ،

---

(١) الطبرى ج ٦ ص ٩٢ .
(٢) الطبرى ج ٦ ص ٩٣ .
(٣) اليعقوبى ج ٢ ص ٥ .
(٤) ابن الأثير ج ٤ ص ٧٢ .
(٥) نفس الموضع .

وقد صادف هذا الوهم ارتياحاً لدى ابن الزبير وبخاصة بعدما حدث بينه وبين ابن الحنفية من جفاء جعله يغادر المدينة مغاضباً له ، فاعتقل ابن الزبير ابنه الحسن وحبسه فى سجن عارم إلى أن استطاع الحسن أن يفلت من السجن فلحق بأبيه فى منى .

وبهذه الحجة انطلق المختار إلى العراق ، ولكنه كان يعقد عزمه على أمر خطير أخذ له أهبته فعرج بمنى حيث التقى بابن الحنفية وتقدم إليه بأنه جاد فى الثأر لقتلى بنى هاشم محاولا أن ينتزع منه تصريحاً أو تفويضاً بالعمل له ولكن ابن الحنفية لم يجبه بأكثر من أنه فوض أمره إلى الله وأنه لا يحب أن ينصرهم ويهلك من سفك دماءهم سواه جل شأنه وبأنه لا يأمر بحرب ولا بإراقة دماء [١] .

ولكن المختار صمم على أن يفيد من هذا اللقاء ، وبخاصة أنه كان يتنسم أخبار العراق فانتهى إليه وهو فى الطريق « أن الناس فى الكوفة كالسفينة تجول بلا ملاح عليها » ، فقال المختار : « أنا ملاحها الذى يقيمها » [٢] وخرج إلى العراق ليعلن للشيعة أنه قادم من لدى ابن الحنفية الذى اختاره أميناً ووزيراً منتخباً وأميراً وأنه عهد إليه بأن يأخذ ثأر القتلى من آل البيت فى كربلاء [٣] وكان ظهور المختار بالكوفة مرة أخرى فى رمضان سنة ٦٤ هـ والتوابون يعدون لثورتهم ، فراح يبالغ فى إظهار دعواه وأنه ما جاء إلا منتصراً لآل البيت داعياً إلى إمامة المهدى محمد بن الحنفية [٤] وتطلع المختار إلى الاستئثار بالأمر من دون سليمان بن صرد زعيم التوابين ، فجهد فى تفريق الناس عنه بحجة أنه ليس كفئاً وأنه أى المختار مفوض من قبل الإمام محمد ابن الحنفية وليس سليمان كذلك [٥] واستطاع المختار أن ينجح فى تفريق

---

(١) أنساب الأشراف / جـ ٥ / ٢١٨

(٢) طبقات ابن سعد / جـ ٥ ص ٧١

(٣) أنساب الأشراف / جـ ٥ ٢١٨

(٤) ابن كثير / البداية والنهاية جـ ٨ / ٢٤٩

(٥) نفس الموضع .

الناس عنه وأن يضم من أتباعه عدداً كبيراً صاروا يختلفون إليه ويعظمونه ، وعمل جاهداً على التخلص من سليمان إذ كان أثقل خلق الله عليه[١] وكانت نتيجة عمله أن انسلخ عن سليمان عدد كبير من أتباعه الذين إستعدوا للقتال معه ضد عبيد الله بن زياد[٢] نرجح أنهم من الموالى ، وقد غضب سليمان عندما لم توافه فى النخيلة غير أربعة الآف فحسب من مجموع الذين عاهدوه على القتال وهم ستة عشر ألفاً[٣] ولما سأل رفاقه عن هذا قيل له إن المختار يثبط الناس عنك فقد تبعه ألفان[٤] .

واستغل المختار النزاع الذى وقع بين والى الكوفة لابن الزبير عبد الله ابن يزيد ونائبه إبراهيم بن محمد بن طلحة بسبب تهاون هذا الوالى فى قمع الشيعة ، واستغل المختار كذلك السياسة العنيفة الهوجاء التى أخذ بها إبراهيم أهل الكوفة فى ضم عدد كبير من الأنصار ، كما بالغ فى التنديد بتلك السياسة من مثل أن يستأجر نائحات كان يأمرهن بالخروج إلى طرقات الكوفة ينحن ويولولن فيثرن آلام الشيعة ويعدوهم نفسياً لمرحلة الأخذ بالثأر[٥] ولما بدأ أمره يستفحل أودعه إبراهيم بن محمد بن طلحة السجن قبل معركة عين الوردة بين التوابين وجيش الشام ، فلما هزموا وقتل سليمان بن صرد أصبح الجو السياسى فى الكوفة خالياً له ، ومن سجنه كتب إلى فل التوابين النادمين على فشلهم فى الانتقام للحسين يقول : « لم يكن سليمان الزعيم الحق .. أنا .. أنا » وقد هم بعضهم من أنصاره باستنقاذه من السجن وأرسلوا إليه رسولا بذلك فلم يجد لذلك داعياً ، وأنبأهم أنه يخرج قريباً[٦] وبالفعل أطلق سراحه بعد قليل نتيجة جهود صهره عبد الله بن عمر بعد أن أخذ عليه واليا ابن الزبير عهداً

---

(١) ابن الأثير / ج ٤ ص ٧٣ .
(٢) ابن الأثير ج ٤ / ص ٧٣ .
(٣) الطبرى ج ٧ / ص ٦٦ .
(٤) ابن الأثير ج ٤ / ص ٧٣ .
(٥) الإمامة والسياسة ج ٢ / ص ٢٣ .
(٦) ابن الأثير ج ٤ / ص ٨٨ .

وميثاقاً غليظاً على الطاعة والمسالمة [١] ولكنه أخذ يسخر من غفلة والى ابن الزبير وبمواثيقه لهما مؤكداً أنه على استعداد لأن يضحى بكل ماله وعبيده كفارة عن هذه المواثيق على ألا يضحى بطلب المجد والسلطان [٢] وأعفته الأحداث من الحنث بأيمانه إذ ولى الكوفة عبد الله بن مطيع القرشى أشد أنصار ابن الزبير حماسة ، وقد افتتح ابن مطيع عهده بخطبة شد فيها العنان ، ولم تكن موفقة ، إذ أعلن فيها أن أمير المؤمنين ابن الزبير قد أمره بأن يحمل فضل فيئهم عنهم ، وأن يتبع وصية عمر بن الخطاب التى أوصى بها عند وفاته وسيرة عثمان بن عفان [٣] فحك ابن مطيع بكلامه قرحة قديمة ، إذ لم يكن أهل الكوفة ليرضون بأن يؤخذ فضل فيئهم ، بل لقد طالبوا بالإبقاء عليه فى الكوفة وتوزيعه عملا بما فعله علىّ عندما كانت الكوفة قصبة الخلافة ومقر بيت المال المركزى لا كما فعل عمر أو عثمان ، وقد استغل أحد وجوه الشيعة وهو السائب ابن مالك الأشعرى تلك الفرصة ليذكر أهل الكوفة بعظمتها ومجدها أيام علىّ فأسقط فى يد ابن مطيع واضطر إلى أن يعلن استعداده للنزول عند رغبات أهل الكوفة [٤] ونمى إلى ابن مطيع عن طريق صاحب شرطته إياس بن مضارب أن السائب الذى شغب عليه بالأمس من كبار أصحاب المختار ، وأن أمر هذه الجماعة لم يعد هيناً ، ونصح له بالحذر منهم وبالاحتيال فى استدعاء المختار وإلقاء القبض عليه وإيداعه السجن حتى يستقيم أمر الناس ، « فإن أمره قد استجمع له وكأنه قد وثب بالمصر » وعمل ابن مطيع بالنصيحة ، فبعث برجلين يستدعيان المختار تصادف أن أحدهما كان من مريدى المختار فدخل وقرأ قوله تعالى : « وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك » ملمحاً إليه بعزم الوالى على الغدر به ، وفهم المختار ما رمى إليه فتظاهر بالمرض ورجا الرسولين أن يعتذرا إلى ابن مطيع بأن المرض يمنعه من

---

(١) ابن الأثير جـ٤ / ص٨٩ .
(٢) ابن الأثير جـ ٤ / ص ٨٩ .
(٣) ابن الأثير جـ ٤ / ص ٨٩ .
(٤) نفس الموضع .

القدوم عليه[١] وبدأ المختار العمل ، وكان يتلهف إلى أن تستند دعوته إلى أحد العلويين مما جعل الشيعة يرتبطون به ارتباطاً أوثق ، وكان يعتقد أن سبب فشل سليمان بن صرد يرجع إلى أنه أغفل الاستناد فى دعوته إلى أحد أهل البيت ، وأنه لم يرسم خطة عريضة للمستقبل ، ووقع اختيار المختار على علىّ بن الحسين فهو ابن شهيد كربلاء الذى يقيم المختار دعوته على الثأر له ، فكتب إليه يقترح أن يأخذ له البيعة من أهل العراق وأرفق برسالته إليه مبلغاً كبيراً من المال ، ولكن ابن الحسين رفض الاقتراح فقد كان صبيًّا ولا تزال ذكرى كربلاء ماثلة فى ذهنه ، فآثر الابتعاد عن السياسة ومخاطرها[٢] وكان لجوء المختار إلى علىّ بن الحسين فى فترة لقى فيها من الشيعة شكًّا واشتباهاً فى أمر تفويض ابن الحنفية له إذ بلغ شكهم فيه درجة قرروا معها أن يخرجوا إلى ابن الحنفية يسألونه عن حقيقة أمر المختار فكان جوابه لهم ما أحب إلينا ممن طلب ثأرنا وأخذ لنا بحقنا وقتل عدونا[٣] أو قال : « أما ما ذكرتم ممن دعاكم إلى الطلب بدمائنا فوالله لوددت أن الله انتصر لنا من عدونا بمن شاء من خلقه[٤] ولقد فهم وفد الشيعة من ابن الحنفية أنه لا يمانع فى أن يثأر لهم على يد من يرغب فى ذلك ، وكانت هذه إجابة كافية لهم فعادوا يلتفون حول المختار الذى شعر بأنه استراح من هم ثقيل ، ودعا فى الحال إلى اجتماع للشيعة صال فيه وجال وسخر من أولئك الذين يرتابون فيه ، وتدبر المختار أمره فهو لن يستطيع أن يلقى أى نجاح ضد أشراف الكوفة وضد والى الزبيريين ما لم يكسب رجلا خطيراً يتزعم النخع من مذحج هو إبراهيم بن الأشتر الذى كان أبوه ساعد علىّ بن أبى طالب الذى يبطش به ، وكان إبراهيم بارعاً كأبيه ماكراً مستقل الرأى كما كان على اتصال بمحمد بن الحنفية وإن آثر ألا يشترك فى حركات التشيع الأخيرة على الرغم من محاولات

---

(١) ابن الأثير / ج ٤ / ص ٨٩ .
(٢) المختار الثقفى / ص ١٤٦ .
(٣) اليعقوبى ج ٣ / ص ٥ .
(٤) ابن الأثير / ج ٤ / ص ٩٠ .

التوابين ومحاولات المختار العديدة لاكتسابه ، ولقد استطاع الشيعة أن يحملوا إبراهيم على الموافقة ، ولكنه اشترط أن يلى الأمر من دون المختار فاحتجوا عنده بأن ليس إلى ذلك من سبيل ، والمختار جاءهم من قبل المهدى وهو المأمور بالقتال وهم مأمورون بطاعته ، وفشلت هذه المحاولة أيضاً ، وبعد ثلاثة أيام قصده المختار بنفسه فى أنصاره وسلمه رسالة زعم أنها من المهدى محمد بن علىّ أمير المؤمنين تجرى على هذا النحو : « من المهدى إلى إبراهيم ابن مالك الأشتر سلام عليك فإنى أحمد الله إليك الذى لاإله إلا هو ، أما بعد فإنى قد بعثت إليكم وزيرى وأمينى الذى أرتضيه لنفسى وأمرته بقتال عدوى والطلب بدماء أهل بيتى ، فانهض معهم بنفسك وعشيرتك ومن أطاعك فإنك إن تنصرنى وأجبت دعوتى كان لك بذلك عندى فضيلة ولك أعنة الخيل وكل جيش غاز وكل مصر ومنبر وثغر ظهرت عليه فيما بين الكوفة وأقصى بلاد الشام »[1] وتشكك إبراهيم فى الأمر لأن ابن الحنفية يلقب نفسه بالمهدى وهو أمر لم يعهده منه فهو لا يكتب فى مراسلاته إليه غير اسمه واسم أبيه وأسرع المختار يبرر ذلك بقوله إن ذلك زمان وهذا زمان ولكن إبراهيم طالبه بأدلة دامغة على صدور الكتاب من ابن الحنفية فاستشهد بقوم زعم أنهم الذين قدموا بالكتاب وانتحى إبراهيم بعامر بن شراحبيل الشعبى يسأله هل يشك فى أمانة الشهود فأكد له الشعبى أمانتهم وقال : « معاذ الله فإنهم سادة القراء ومشيخة المصر وفرسان العرب ولا أرى مثل هؤلاء يقولون إلا حقاً » وسأله إبراهيم أن يكتب له محضراً بأسمائهم حتى اطمأن قلبه وحينئذ امتثل لما ورد فى الكتاب ووضع نفسه فى خدمة المختار ، ودعا عشيرته ومن فى طاعته وأقبل المختار كل مساء يدبر معه الأمر وأجمعوا على الخروج ليلة الخميس الرابع عشر من ربيع الأول سنة ٦٦هـ[2] وبدأ الدور الإيجابى للثورة ، وتناهى إلى ابن مطيع خبر المختار وابن الأشتر وعزمهما على الثورة على رأس الشيعة

---

(١) ابن الأثير جـ ٤ / ٩١ .

(٢) ابن الأثير جـ ٤ / ٩١ .

وإن لم يتحقق من الموعد المضروب بالدقة ، فأخذ من يوم الاثنين السابق على موعد الثورة يأخذ للأمر عدته واحتلت الشرطة الميادين العامة والسوق القريبة من المسجد الجامع ورسم ابن مضارب خطة المقاومة فبعث بابنه إلى الكناسة وبث فى كل جبانة عظيمة رجلا ليوقع الهيبة فى نفس المختار فلا يخرج[١] واحتل شبث بن ربعى السبخة ومعه جنده وتقدم إبراهيم على رأس فرقة مسلحة من مائة رجل فى طريقه إلى بيت المختار ولم يتجنب الشرط فاعترضه ابن مضارب فقتله إبراهيم وكان هذا الحدث إيذاناً ببداية الثورة قبل موعدها المضروب ولم يكن هناك مفر من المضى فيها ، ووضع أصحاب المختار رأس ابن مضارب على رمح وطافوا بها فى الطرقات ، وبدأ احتشاد جنود المختار فى الميادين منذ الليل وتوافرت للثورة جميع مقومات النجاح .

وفى صبيحة يوم الأربعاء الثالث عشر من ربيع الأول سنة ٦٦ هـ نظم المختار أتباعه ونزل فى ظهر ديرهند مما يلى السبخة وأقام معهم صلاة الصبح ووعظهم وكان بجيشه كثير من الموالى الفرس المخلصين له وقد تراجع ربعى وجنده أمام فصيلة من الموالى ، فصرخ فى رجاله « يا حماة السوء بئس فرسان الحقائق أنتم أمن عبيدكم تهربون » ، وأثار هذا الكلام وتر الشرف وهزه ضد الموالى من أتباع المختار فراحوا يصرعونهم ويتركون الفرصة للعرب فى الفرار[٢] حتى أضحى جيش المختار فى حالة سيئة وأوشك قائد فرسانه يزيد بن أنس الأسدى أن يتضعضع لأن إبراهيم كان قد تقدم على رأس الكتلة العظيمة من الجيش يخضع أحياء المدينة وجباناتها وعاد فى الوقت المناسب يساند يزيد ضد أربعة آلاف من جند ابن مطيع بقيادة قائده الجديد راشد بن إياس ، وتمكن إبراهيم من هزيمتهم وقتل قائدهم وتعالت أصوات الشيعة بالتهليل والتكبير . وكانت قوات شبث بن ربعى قد فرت حين قدوم إبراهيم إلى السبخة ولكنهم ما لبثوا أن عادوا إلى الاحتشاد وانضم إليهم وآخرون ، ولكن إبراهيم فرق شملهم

---

(١) الكامل ج ٤ ص ٩١ .

(٢) الشيعة والخوارج ص ٢٠٨ .

وفر أشراف الكوفة كما فر ابن مطيع إلى القصر حيث حوصروا فيه ، وبهذا النصر زاد عدد الشيعة وجند المختار زيادة كبيرة ، ورجع الناس منهزمين إلى ابن مطيع الذى علم بقتل قائده فأسقط فى يده ، واستشار رفاقه فأشار شبث بن ربعى عليه بأن يأخذ لنفسه ولهم أماناً فكره أن يفعل هذا والأمور مستقرة لابن الزبير فى الحجاز والبصرة ، واستقر رأيهم على أن ينسل ابن مطيع فلا يشعر به أحد فيختبئ حتى يأمن فيلحق بابن الزبير [١] وأنسل ابن مطيع بعد ثلاثة أيام من القصر هارباً واستتر ، وأذعن الأشراف وبايعوا للمختار على كتاب الله وسنة رسوله بدماء أهل البيت وجهاد المحلين والدفع عن الضعفاء وقتال من قاتلنا وسلم من سالمنا والدفاع ببيعتنا لا نقيلكم ولا نستقيلكم ، وأخذ المختار ما فى بيت المال وقدره تسعة ملايين درهم فكافأ أنصاره ونهض بالأمر فى الكوفة وسعى لإشاعة العدل والرحمة والطمأنينة والصلح بين الأحزاب ، وتولى القضاء بمهارة وحماسة وترك ابن مطيع يرحل فى أمان وقواه بالمال وكف جنده عن القتل وارتكاب المظالم مما جعل الحريصين على مصالح الكوفة يستبشرون إذ أن المختار فكر فى أن يجعل الكوفة مركزاً للخلافة الإسلامية مرة أخرى [٢] .

وقد عنى المختار بالموالى عناية ملحوظة فى سياسته لأنهم كانوا يؤلفون أكثر من نصف سكان الكوفة ويهيمنون على مرافق الحياة من مهن وحرف وتجارة [٣] وقد كثر تعدادهم حتى فاقوا العرب فى بعض المدن وقد بلغ عددهم فى الكوفة لعهد معاوية عشرين ألفاً [٤] . وكانت غالبيتهم من الفرس الذين اعتنقوا الإسلام وأعتقهم سادتهم فانتسبوا إلى القبائل العربية وقد أعطاهم الإسلام من الحقوق أكثر مما سمح به لهم سادتهم العرب أو سمح لهم سادتهم من الحقوق بأقل مما سمح به الإسلام ، لأنهم ظلوا فى خدمتهم وكانوا

---

(١) الكامل جـ ٤ ص ٩٤ .

(٢) الشيعة والخوارج ص ٢١١ .

(٣) Nicke'son. Litt. Hist. of Arales pp. 218

(٤) الأخبار الطوال / ٢٩٦ .

حاشيتهم فى السلم والحرب ، ولكن آمالهم انتعشت بإتاحة المختار لهم فرصة المشاركة المباشرة فى الدولة إن قربهم وأولاهم ثقته واختار منهم حرسه وكون منهم رجالة الجيش الذين يحملون الهراوات أو الكافر كوبات . ويذكر البلاذرى أن عنايته بالموالى نشأت منذ فجر حياته وكان المغيرة هو الذى لفته إلى أهمية الاستناد إليهم ، فقد سايره يوماً فى ولايته على الكوفة لمعاوية فمرا بالسوق فالتفت المغيرة إلى المختار : وقال : يالها من غارة وياله جمعاً .. إنى لأعلم كلمة لو نعق لها ناعق لاتبعوه ولا سيما الأعاجم الذين إذا ألقى عليهم الشىء قبلوه ، فقال له المختار : وماهى ياعم؟ قال المغيرة : يستأدون بآل محمد فأغضى عليها المختار[١].

وكان لتشيع الموالى آثار دينية وسياسية فى تاريخ الشيعة ، وتتجلى الآثار الدينية فى الأفكار الفارسية التى دخلت إلى الفكر الإسلامى كعصمة الأئمة وتجسد الألوهية فى الإمام وغير ذلك من الأفكار . وكذلك كان لهم آثار فى السياسة لا تقل عن آثارهم فى العقائد ، من ذلك ظهور فكرة الوراثة القديمة الخاصة بالملكية الإلهية كما كان الموالى دائماً وراء كل حركة سياسية ، فسخطوا على بنى أمية لتمسكهم بروح العصبية العربية وإنزالهم غير العرب من المسلمين فى منزلة القطن وإبعادهم عن السياسة والقيادة ، وقد جمع المختار إليه الموالى واحتضنهم وجهد فى أن يسوى بينهم وبين العرب ولقى فى سبيل ذلك حرجاً بالغاً وهو العربى الشريف الذى لا يريد أن يفقد ولاء هؤلاء ويحرص على إنصاف أولئك ، وقد رأى أشراف العرب محاولات المختار من خلال عصبيتهم ، وشعروا كأنما أغرى بهم عبيدهم الذين لم يقنعوا بالتحرر ، فراحوا يمدون أيديهم لبسطها على الخراج والأعطيات الجارية ، وكان تعصب العرب على الموالى قد بدأ بعد قتل أبى لؤلؤة لعمر بن الخطاب ، فكتب عثمان ابن عفان إلى عماله يأمرهم بتفضيل العرب على الموالى وبخاصة فى العطاء[٢] .

ويذهب بعض المؤرخين إلى أن الموالى هم المسئولون عن معاملة العرب

---

(١) أنساب الأشراف جـ ٥ / ٢٢٣ .

(٢) الطبرى جـ ٥ / ص ٦٣ .

لهم على هذا النحو ، لأنهم يعاملونهم كما يعاملون أكاسرة الفرس[١] ، وفى ظننا أن المسئول عن هذا ليس الموالى ، وإنما النزعة العصبية الجاهلية التى حاربها الإسلام وجهد فى القضاء عليها ، ولكنها عادت جذعة إلى نفوس العرب بعد زوال الخلافة الإسلامية ومبادئها السمحة ، وربما صورت لهم عصبيتهم أن يدافعوا الموالى غيرة على الدين واللغة ، فقد ظن العرب وبخاصة من ولاة العراق للأمويين أن معظم الموالى اعتنقوا الإسلام لمصالح شخصية كتولى الوظائف أو التخلص من دفع الجزية ، وخشى بعضهم أن تهجن اللغة إذا ما انتشرت اللكنة الفارسية واللحن ولهذا عربت الدواوين .

وفى العقد الفريد أمثلة كثيرة لاحتقار العرب لموالى العراق خلال الحكم الأموى ، ولقد اتبع المختار مع الموالى سياسة التسامح والمساواة والعدل وهال العرب من الأشراف أن يكافح الموالى فى سبيل مصالحهم الخاصة لا فى سبيل سادتهم وفتحت الكراهية على مصراعيها بين العرب والموالى وأهيجت العداوة ولم يفلح المختار فى اجتياز هذه العقبة ، فقد نقم عليه الأشراف تقريبه الموالى واعتماده عليهم ، فكان يقول لهم : « لا يبعد الله غيركم أكرمتكم فشمخ بأنوفكم ، وليتكم فكسرتم الخراج وهؤلاء العجم أطوع لى منكم وأوفى وأسرع إلى ما أريد »[٢] وكان يصفهم بأنهم ورثة الحضارة الفارسية وأنهم أولاد الأساورة من أهل الفرس والمرازبة[٣] ، وفى نفس الوقت كان يخشى أن ينقم الموالى عليه مهادنته للأشراف المسئولين عن خذلان الحسين[٤] .

وهكذا لم يكن الصراع بين المختار ومصعب بن الزبير فى حقيقته إلا صراعاً بين الموالى والعرب ، وقد ظن المختار أنه يستطيع أن يخدع ابن الزبير بأن يحالفه ضد العدو المشترك فكتب إليه « فإن ترد مراجعتى ومناصحتى

---

(١) تاريخ العرب العام / ص ١٧٣ .
(٢) الأخبار الطوال / ٣٠٦ .
(٣) الأخبار الطوال / ٣٠٢ .
(٤) الشيعة والخوارج / ٢١٤ .

فعلت » وكان هدف المختار أن يكف ابن الزبير عنه ليتم أمره ، والشيعة لا يعلمون بشيء من أمره [١] وفى الوقت نفسه كان خائفاً من أن يوجه إليه ابن الزبير جيشاً ينتقم لما فعله بابن مطيع [٢] ، وأراد ابن الزبير أن يتأكد من صدق المختار فبعث بعمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومى وأعطاه نحواً من ثلاثين ألف درهم وسيره إلى الكوفة وأعلمه أن المختار سامع ومطيع ، وعلم المختار بقدوم عمر وأراد أن يصرفه بالحسنى فأوعز إلى زائدة بن قدامة ومعه خمسمائة فارس بأن يعرض على عمر سبعين ألف درهم فإن رفضها هدده بالسلاح ، وأبدى عمر الرفض أول الأمر ولكنه آثر المال ورحل به إلى البصرة حيث أقام إلى جانب سلفه ابن مطيع [٣] ، وأصر المختار على انتهاج نفس السياسة مع ابن الزبير ليخدعه عن نفسه فبعث إليه برسالة يطلب فيها أن يقره على الكوفة على أن يمده بمليون درهم فى مقابل أن يزحف المختار بجيشه لقتال عبد الملك ، ولكن ابن الزبير لم يثق به ورفض اقتراحه [٤] ، وحانت الفرصة أخيراً إذ بعث عبد الملك جيشاً بقيادة عبد الملك بن الحارث إلى الحجاز فكتب المختار إلى ابن الزبير يعرض المساعدة فاضطر ابن الزبير إزاء حرج موقفه لقبول عرضه وإن اشترط عليه أن يأخذ له البيعة من أهل العراق ، ولم يكن المختار يريد مساعدة ابن الزبير فى الحقيقة ، وإنما كان يأمل أن ينجح قائده شرحبيل بن ورس الهمدانى وجنده البالغون ثلاثة آلاف من الموالى فى انتزاع المدينة من ابن الزبير ولم يكن ابن الزبير مرتاحاً إلى المختار فأخذ الحيطة وأعد جشاً من ألفين بقيادة عياش بن سهل وعهد إليه بالدفاع عن المدينة ، فإن أيقن من إخلاص حلفائه تعاونوا ضد الأمويين وإلا فعليه أن يتخلص منهم جميعاً .

وعند وصول جند المختار صدرت إليهم الأوامر من قائد ابن الزبير بالتوجه

---

(١) ابن الأثير جـ ٤ / ١٠٣
(٢) أنساب الأشراف جـ ٥ / ص ٢٣٤
(٣) ابن الأثير جـ ٤ / ١٠٣
(٤) ابن الأثير جـ ٤ / ص ١٠٣

إلى وادى القرى ، ولكن ابن ورس احتج بأنه ليس لديه أوامر بهذا ، وزعم أنه أمر بأن يأتى المدينة وطلب مهلة يستفسر فيها من المختار ، وحدث أن نفدت مئونة ابن ورس فطلب من عياش إمداده فأمدهم ببعض الأغنام ، وانتهز انشغالهم بتجهيزها ، وإلقاء سلاحهم جانباً وهاجمهم بجنده فقتلوا ابن ورس وسبعين معه وتتبع عياش جند المختار فقتل منهم مائتين وفر الباقون حيث هلكوا جوعاً وعطشاً فى الطريق [١] .

ولم يفوّت المختار الفرصة فبعث إلى محمد بن الحنفية يذكر له أن غرضه من إنفاذ هذا الجيش كان مساعدته ضد اضطهاد ابن الزبير له وعرض عليه أن يعيد الكرة فبعث جنداً كثيفاً لهذا الغرض ولكن ابن الحنفية كان ميالا للسلم فرفض عرضه ،وحدث أن باشر ابن الزبير اضطهاده وتعذيبه لابن الحنفية وبنى هاشم فحبسهم فى زمزم مستغلا قدومهم للحج ، وتوعدهم بالقتل والإحراق إن لم يبايعوا وضرب لهم أجلا ، فأشار عليه بعض أنصاره أن يستنجد بالمختار ففعل ، وانتهز المختار الفرصة فأثار مشاعر أهل الكوفة فبكوا وطلبوا أن يسيروا لنصرة ابن الحنفية وبعث المختار بجيش يقوده عبدالله الجدلى، ودخل المختاريون المسجد الحرام وهم ينادون بشعار المختار يا لثارات الحسين ، وكان قد بقى على الأجل الذى حدده ابن الزبير لبنى هاشم يومان فكسروا باب السجن وأطلقوا ابن الحنفية وأنصاره واستأذنوه فى قتال ابن الزبير فلم يستحل القتال فى الحرم واضطر ابن الزبير أن يخفض صوته بعد أن أحاط بابن الحنفية أربعة آلاف رجل وزع عليهم المال فعادوا أدراجهم ، وكان الأمويون فى شغل عن المختار بابن الزبير إذ أرسل مروان بن الحكم سنة ٦٥هـ بجيشين إلى العراق: أحدهما بقيادة ابن زياد والثانى بقيادة حبيش بن دلجه لاستعادة المدينة المنورة من جابر بن الأسود نائب ابن الزبير وشعر الحارث بن أبى ربيعة عامل ابن الزبير على البصرة بحرج الموقف فبعث بجيش استطاع أن يشغل حبيش عن فتح المدينة ، وتولى المدينة آنذاك لابن الزبير عياش بن سهل ، فاستطاع

---

(١) ابن الأثير جـ ٤ / ١٠٤ .

أن يقضى على الجيش الأموى[١] بينما مضى جيش ابن زياد فلقى التوابين مصادفة ، ثم أمضى عاماً بعد عين الوردة مشغولا بالحروب القبلية فى الجزيرة مع قيس وقد أتاح هذا للمختار أن يمكن لنفسه وأن يبسط نفوذه فدانت له أرمينية وأذربيجان والموصل والمدائن وأرض جوخى وبيهقاذا وحلوان وأصبهان وقم والماهين وهمذان وغيرها[٢] وأيضاً كان ابن الزبير فى شغل عنه ببنى أمية فاضطر إلى مهادنته مؤقتاً [٣] .

ويئس ابن زياد من انتصار حاسم على زفر بن الحارث زعيم القيسية الموالى لابن الزبير فى الجزيرة ، فترك قتاله ومضى إلى الموصل وسارع عامل المختار عليها بإبلاغه بقدوم ابن زياد وبانسحابه أمامه إلى تكريت ، فدعا المختار قائده يزيد بن أنس لنجدة عامل الموصل فى ثلاثة الآف من الفرسان . واستعد قائد المختار لمعركة مع طلائع جيش ابن زياد .

والتقى الجمعان فى التاسع من ذى الحجة سنة ٦٦ هـ قرب الموصل ، وكان أهل الشام فى ستة آلاف ، وعلى الرغم من أن قائد المختار كان يدير المعركة وهو مشرف على الموت لمرضه ، فقد انتصر على جيش الشام بعد موقعة استمرت يومين ومات على أثرها ، فتولى الجيش بعده ورقاء بن عازب الأسدى الذى آثر العودة ولم يجرؤ على مواجهة قوات الشام الرئيسية وهى تقترب بقيادة ابن زياد فى ثمانية آلاف أرجل[٤] . وخشية من سريان إشاعة أرجف بها الأشراف فى الكوفة تزعم أن جيش المختار قد هزم وأن قائده قتل ، أمر المختار قائده ابن الأشتر بأن يسير فى سبعة آلاف إلى ميدان المعركة بأسرع ما يمكنه ، وانتهز الأشراف الفرصة فاجترأوا على المختار وعابوا عليه تقريب الموالى وحملهم على الدواب واعطاء هم فيئهم وتوليه الأمر دون رضاهم وادعاءه

---

(١) البداية والنهاية جـ ٨ ص ٢٦٠ .
(٢) ابن الأثير جـ ٤ / ٢٩٥
(٣) ابن الأثير جـ ٤ / ١٠٤
(٤) ابن الأثير جـ ٤ / ٩٧

أمانة ابن الحنفية وتمردوا عليه ، وكان شبث بن ربعى التميمى هو المتحدث بلسانهم ووعده المختار بالنظر فى الأمر واشترط عليهم فى مقابل إجابتهم لمطالبهم أن يقاتلوا الأمويين والزبيريين إلى جانبه ، ولكنهم رفضوا هذا العرض وقطعوا الاتصال بينها وبين الخارج وحصروا المختار فى القصر ، ولكنه أفسد تدبيرهم بأن اقترح أن يرسل وفداً ويرسلوا وفداً إلى ابن الحنفية لسؤاله عن مدى تأييده للمختار قاصداً بهذا أن يريثهم حتى يقدم عليه قائده ابن الأشتر [١] ونجح المختار فى إنفاذ رسول إلى ابن الأشتر لم يحتج إلا إلى يوم واحد حيث أبلغه بالأمر ، وفى المساء التالى كان إبراهيم يعسكر إلى جوار مسجد الكوفة واستؤنف القتال الذى حدث عند إعلان ثورة المختار من جديد ، وتداخلت الأضداد فانضم بعض الشيعة العرب الذين كانوا حتى ذلك الوقت فى صف المختار إلى الأشراف ، وكأنهم تيقنوا من ادعاء المختار على ابن الحنفية ، وقاتل ابن شبث بن ربعى زعيم الأشراف فى صف المختار ضد أبيه بإصرار وعناد ، واتخذ الأشراف مراكزهم فى ثلاثة مواضع من الكوفة فنزلت مضر فى الكناسة وهمدان فى جبانة السبيع المتصلة بالسبخة بينما وقفت ربيعة خارج الكوفة مما يلى السبخة وترك الأشتر قتال همدان للمختار وكانت مذحج قد اعتزلت قتاله وجاءت الضربة الحاسمة حينما انضم فرع شبام إلى صف المختار ضد همدان فأصبحت اليمن وقد افترقت فريقين يقاتل أحدهما مع المختار والآخر مع العصبية العربية وكانوا أشد القوم قتالا ، واستطاع إبراهيم أن يمزق شمل مضر بغير صعوبة وتشتت ربيعة قبل أن تشهر سيفاً .

وليس هناك شك فى أن أصابع الأمويين كانت وراء انقلاب الأشراف فى الكوفة على المختار وأنهم حرضوهم على الثورة ، إذ يروى الدينورى أن شمر ابن ذى الجوشن وعمر بن سعد ومحمد بن قيس بن الأشعث وأخاه قدموا الكوفة عندما بلغهم خروج الناس على المختار وخلعهم طاعته ، وكانوا قد هربوا منه طول سلطانه لأنهم كانوا الرؤساء فى قتال الحسين فصاروا حينئذ مع أهل

(١) ابن الأثير جـ ٤ / ٩٧ .

الكوفة وتولوا أمر الناس وتأهب الفريقان للحرب وزحف المختار نحوهم فاقتتلوا فقتل منهم خلق كثير ونادى المختار يا معشر ربيعة ألم تبايعونى ؟ فلم خرجتم على ؟ فقالت ربيعة : صدق المختار لقد بايعناه وأعطيناه صفقة إيماننا واعتزلوا حربه وتحايدوا ، بينما ثبتت سائر القبائل فقاتلت حتى هزم أهل الكوفة الأشراف وقتل منهم خمسمائة رجل وأسر منهم مائتا رجل وهرب جمهرر الأشراف فلحقوا بالبصرة وبها مصعب بن الزبير فانضموا إليه [١] ، وإزاء انتقاض الأشراف عليه رأى المختار ألا يؤخر الثأر للحسين من قاتليه فى الكوفة وقد لاذ بعضهم بمصعب بالبصرة وجند الأمويين يتقدم بعد نجاحهم فى الاستيلاء على الموصل ، وحتى يفرغ لعدوه فى الخارج رأى أن يسارع بالقضاء على عدوه فى الداخل ، ونادى منادى المختار بالأمان إلا لمن اشترك فى قتل الحسين وترك للشيعة أن ينتقموا له بعد أن كان يمنعهم حفاظاً على وحدة الصف بين الموالى والعرب ، وتوالى القتل فى الأسرى ثم فى المسئولين عن كربلاء فاستخرجوا وقتلوا بدعوى أن ذلك أمر ابن الحنفية وكان بين القتلى شمر بن ذى الجوشن وعمر بن أبى وقاص وابنه وكثير من قريش ، وهرب من نجا منهم إلى البصرة ، وهدمت بيوتهم فى الكوفة وضمن المختار حماية النسوة والأبناء والحرم ، وكان جند المختار من الموالى يتعقبون قتلة الحسين كالكلاب البوليسية ، وكانوا جميعاً من العرب ، وبينما كان شعار المطاردين يا لثارات الحسين ، كان شعار المطاردين يا لثارات عثمان ، واستطاع أنصار المختار أن يأسروا خمسمائة رجل فى اليوم الأول استعرضهم المختار فأخرج منهم مائتين وثمانية وأربعين شهدوا مصرع الحسين فقتلهم وأطلق الباقين بعد استيثاق ، وكانت النسوة يرشدن على أزواجهن ، وتوج المختار عمله بأن أرسل برأسى عمر بن سعد وابنه حفص إلى ابن الحنفية .. « هذا بحسين وهذا بعلى بن حسين ولو قتلت به ثلاثة أرباع قريش ما وفوا أنملة من أنامله » وبعث مع الرأسين برسالة إلى المهدى محمد بن علىّ من المختار بن أبى عبيد .. أما بعد فإن الله بعثنى نقمة

---

(١) الأخبار الطوال / ص ٣٠٦ .

على أعدائكم فهم بين قتيل وأسير وطريد وشريد ، فالحمد لله الذى قتل قاتليكم ونصر مؤازريكم وقد بعثت إليك برأس عمر بن سعد وابنه ، وقد قتلنا ممن شرك فى دم الحسين وأهل بيته رحمة الله عليهم كل من قدرنا عليه ولن يعجز الله من بقى ، ولست بمحجم عنهم حتى لا يبلغنى أن على أديم الأرض منهم آدميًّا فاكتب إلى أيها المهدى برأيك أتبعه وأكون عليه والسلام عليك أيها المهدى ورحمة الله وبركاته [١] ويصف الدينورى ما أنزله المختار بدور قتلة الحسين من هدم وتخريب بقوله : « وولى المختار الشرطة كيسان أبا عمره وأمره أن يجمع ألف رجل من الفعلة بالمعاول وأن يتتبع دور من خرج إلى قتال الحسين فيهدمها ، وكان أبو عمره بذلك عارفاً فجعل يدور بالكوفة على دورهم فيهدم الدار فى لحظة فمن خرج إليهم منهم قتله حتى هدم دوراً كثيرة وقتل أناساً كثيرين وجعل يطلب ويستقصى فمن ظفر به قتله [٢] وسارع المختار بإرسال إبراهيم لمواجهة أهل الشام وصحبه حتى الفرات يمنيه بنصر الله ومساندة الملائكة الغضاب والتقى الجيشان عند نهر خازر الذى يصب فى الدجلة ، وانتصرت شيعة المختار على عدوهم الذى كان عشرة أمثالهم بعد أن انضم القيسيون من جيش ابن زياد إلى صفوف الأشتر وانهزم بهم عمير بن الحباب نكاية فى ابن زياد[٣] وقتل فى المعركة عبيد الله بن زياد والحصين بن نمير السكونى وشرحبيل بن ذى الكلاع وكان قوام جيش الشيعة من الموالى الضاربين بالعمد ، وبعد المعركة أغزى إبراهيم أحد إخوته نصيبين ودارا وسنجار ، وولى زفر قرقيسيا وأقام إبراهيم بحكم الموصل باسم المختار [٤] .

وتنفست الشيعة الصعداء وأصبح المختار فى ذروة مجده ، ولكنه كان فى الوقت نفسه أمام الهاوية ؛ فالشيعة من العرب لا يثقون به وليس أمامه إلا الموالى

---

(١) الطبرى / جـ ٦ / ١١٩
(٢) الأخبار الطوال ص ٣٠٠
(٣) الكامل / جـ ٤ / ١١٠
(٤) الكامل / جـ ٤ / ١١١

المتعصبون فانحاز إليهم ضد العصبية العربية وكان الموالى شديدى الإعجاب به وبصورته الرائعة التى ظهر عليها وإن كان قد اعتمد فى رسمها على كثير من الاحتيال والشعوذة كإطلاقه الحمائم البيض وزعمه أنها الملائكة [١] فى موقعة خازر وتنبؤه بالغيب وبانتصار إبراهيم وقوله إن لم يصح تنبؤه بالبداء على الله [٢] وما كان من أمر الكرسى الذى كان يحمل فيه على بغل ويقوم بسدانته سادن يتراقص الموالى ويثبون من حوله بحماسة وجنون، وإن كان بعض المؤرخين يذهب إلى أن المختار غير مسئول عن ذلك وأنه لم يشأ أن يفسد على الموالى لذتهم إذ لم يكن فى وسعه الاستغناء عن مساعدتهم وهم يخوضون النار من أجله [٣] ولكننا لا يمكن أن نعفيه من مسئولية هذه الأعمال إذ كان يشجعها وقد رآها تجوز على البسطاء من الموالى ، وقد كان يقول لجنده قاتلوا على الكرسى فهو لكم كالتابوت لبنى إسرائيل [٤] وفى الحق أن المختار كان صاحب أباطيل ، فقد كان يزعم أن جبريل ينزل عليه ويأتيه بالوحى من الله ، وقد قيل لصهره ابن عمر عن ذلك فقال صدق قال تعالى « وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم » [٥] وقد كتب إلى أهل البصرة يقول : بلغنى أنكم تكذبونى وتكذبون رسلى ، وقد كذبت الأنبياء من قبلى ولست بخير من كثير منهم [٦] .

وكان يمخرق على الناس بأكاذيب شتى منها أن يتكهن بأمور ويحتال فيوقعها كما تكهن بها ثم يزعم للناس أن هذا من عند الله كقوله وهو يشيع ابن الأشتر لقتال ابن زياد « إن استقمتم فنصر الله، وإن حصتم حيصة فإنى أجد فى محكم الكتاب وفى اليقين والصواب أن الله مؤيدكم بملائكة غضاب

---

(١) الطبرى جـ ٦ / ١٢٣
(٢) الملل والنحل جـ ١ / ١٣٢
(٣) الشيعة والخوارج / ص ٢٢٦
(٤) الطبرى / جـ ٧ / ص ١٤٠ ، الملل والنحل جـ ١ / ١٣٢
(٥) أسد الغابة / جـ ٤ / ص ٣٣٦ ، لسان الميزان / جـ ٦ / ص ٦ .
(٦) العقد الفريد / جـ ٢ / ص ٢٦٥

تأتى فى صورة الحمام دوين السحاب » وكان قد دفع إلى قوم من خاصته حماماً بيضاً وقال لهم : إن رأيتم الأمر لنا فدعوها وإن رأيتم الأمر علينا فأرسلوها فلما التقى الجمعان دارت الدائرة على أصحاب إبراهيم فأرسل الحمام وتصايح الناس : الملائكة فتراجعوا حتى انكشف أصحاب ابن زياد وفنوا [١] .

ومن ضلاله أنه جوز البدء على الله تعالى وقد افترى القول به لأنه كان يدعى علم ما يحدث إما بوحى وإما برسالة من قبل الإمام ابن الحنفية فإن وافق الحدث ما تكهن به جعله دليلا على صدق دعواه ، وإن خالفه قال قد بدا لربكم [٢] .

وكان يغطى كرسيه بالديباج ويضعه فى مقدمة الجيش ويقول إن فيه السكينة واليقين والملائكة [٣] .

ويقول الشهرستانى إن محمد بن الحنفية لما وقف على ذلك تبرأ منه وأظهر لأصحابه أنه إنما نمس على الخلق ذلك ليمشى أمره ويجتمع الناس عليه وإنما انتظم له ما انتظم بأمرين انتسابه إلى محمد بن الحنفية علما ودعوة وقيامه على ثأر الحسين [٤] .

ولم يعد أمام المختار بعد أن انهزم أهل الشام أمام جنده إلا الخطر الذى يهدده الآن من البصرة حيث كان مصعب بن الزبير يتولى الأمر من قبل أخيه الخليفة فى مكة منذ نهاية سنة ٦٦ هـ، وقد أخذ أشراف الكوفة الهاربون من المختار وبخاصة شبث بن ربعى التميمى ومحمد بن إسحق بن الأشعث الكندى يحرضونه على المختار ، ولكن مصعباً كان يؤجل هذا حتى يستقدم المهلب الذى كان يقاتل الخوارج فى ذلك الوقت [٥] .

---

(١) الطبرى جـ ٦ ص ١٢٣ والملل والنحل جـ ١ ص ٢٤٠
(٢) الملل والنحل جـ ١ / ص ٢٣٧
(٣) الملل والنحل جـ ١ / ٢٣٩
(٤) الملل والنحل جـ ١ / ٢٣٧
(٥) أنساب الأشراف جـ ٥ / ٢٥١

وبعد استغاثة من مصعب بأن العبيد قد غلبوا على النساء والأبناء والحرمات أقبل المهلب فى جيش كثيف بعد أن هادن الخوارج هدنة مؤقتة ، وخرج من البصرة قبل منتصف سنة ٦٧ هـ .

وعلم المختار بخروج مصعب والمهلب لقتاله فجمع جنده وأنصاره وولى عليهم أحمر بن شميط قائداً عاماً ، وولى أبا عمرة قائداً لفرقة الموالى ، وتقدم جيش الزبيريين إلى المذار فحاول ابن شميط أن يحقن الدماء وأن يدعو الزبيريين إلى كتاب الله ولكنهم لم يجيبوه ، وهاجم المهلب وهو يصيح صيحات تندد بالعرب الذين يقتلون أنفسهم مع العبيد محاولا إثارة النعرة ، وهجم معه الفرسان من أشراف الكوفة يطلبون ثأرهم ودبت الحماسة فى قلوب الموالى فأوقعوا بالزبيريين حتى أبادوا الرجالة تماماً ، ولكن سرعان ما دارت الدائرة على الشيعة ، ولم يظهر الزبيريون أية رحمة فى الإيقاع بهم ، وكان أقساهم أشراف الكوفة الهاربين إلى البصرة فأعملوا السيوف وبخاصة فى الموالى ، ونجح المهلب فى الإيقاع بين العرب والموالى من جند المختار فتخلى عرب بجيلة وخثعم عن مساندة الموالى الذين لم يفلت منهم أحد [١] .

وزعزعت الهزيمة مكانة المختار فى الكوفة لأنه قد وعد أنصاره النصر فجعلوا يلومونه وجعل يتحدث عن البدء ، واستمات المختار فزحف إلى حروراء وحمى وطيس القتال ونجح فى هزيمة فرسان الكوفة من أشراف العرب الهاربين إلى البصرة ، ورأى المهلب أن يحسم الموقف فنزل برجاله من الأزد وتميم وكان هجومهم فاصلا فامتلأ ميدان المعركة بالجثث وقاتل المختار حتى الصباح وهو مترجل وجنده ينسلون من حوله حتى ليكاد يكون وحيداً وهنا أذعن لرأى القلة التى حثته على العودة فعاد إلى قصره يندب حظه ويتحسر على مفارقة ابن الأشتر الذى تمكن مصعب من الصلح معه واستمالته .

وزحف مصعب على الكوفة فدخلها وحاصر المختار فيها وقطع عنه المؤن ،

---

(١) الشيعة والخوارج ص ٢٢٧ .

ولم يكن بقى حوله إلا عدة آلاف من الموالى ، بينما انسحب العرب إلى أسرهم وبيوتهم ، وكانت النسوة يحملن إليه الماء وبدأت هيبته تزول فكان يلقى عليه الماء والقاذورات أثناء مروره فى الطرقات ، وظل هكذا حتى اشتد به العطش [١] واستمر الحصار أربعة أشهر وبدأ مصعب يتقدم وجنده نحو القصر ، ونزل المختار فى تسعة عشر رجلا فقاتل بشجاعة وبسالة نادرة حتى قتل واحتزت رأسه وأنزل مصعب أعوانه من القصر وأراد أن يطلب العرب منهم وأن يقتل الموالى فأبى أصحابه فقتلهم جميعاً [٢] .

وسمرت كف المختار إلى جانب المسجد . وكان عدد من قتل من جند المختار ستة آلاف أو ثمانية آلاف ،واستحق مصعب بقتلهم أن يلقب بالجزار وقد قال له عبد الله بن عمر بن الخطاب : أنت قاتل سبعة آلاف من أهل القبلة فى غداة واحدة ، عش ما استطعت ، فقال مصعب : إنهم كانوا كفرة سحرة ، فقال ابن عمر : والله لو قتلت عدتهم غنما من تراث أبيك لكان ذلك سرفاً [٣] .

ولم يعف مصعب امرأة المختار فقتلها وقد أبت أن تنكر زوجها ، وسقط المختار وسيطر ابن الزبير على البصرة والكوفة وانتهت هذه الشخصية الغريبة وإن لم ينته أثرها الضخم فى السياسة والعقيدة ، إذ زرع المختار بذوراً استطاعت أن تنمو وتثير الاضطراب فيما بعد لتقتلع جذور الأمويين ليقوم ملك بنى العباس على أكتاف الشيعة الغلاة من الموالى فى الكوفة وخراسان ولم يكن هؤلاء إلا البقية الباقية من أنصار المختار [٤] ويذهب الشهرستانى إلى أن أبا مسلم الخراسانى كان على مذهب الكيسانية [٥] .

---

(١) ابن الأثير / جـ ٤ / ص ١١٤
(٢) ابن الأثير / جـ ٤ / ١١٥
(٣) الطبرى جـ ٧ / ص ١٥٧
(٤) تاريخ الدولة العربية ص ٤٧٨
(٥) الملل والنحل / جـ ١ ص ٢٤٩

وأدى مقتل المختار إلى تطور كبير فى تاريخ الشيعة السياسى ، فقد اتجه الشيعة بعد مصرعه إلى الدعوة والمقاومة السرية ووضع مبدأ التقية . وكان التشيع قد اتخذ فى الكوفة أيام المختار لوناً جديداً إذ كان تعبيراً عن الاتجاه السياسى العام لمعارضة العراق لسلطان الشام ولسلطان الحجاز واستطاعت الحكومة الأموية والزبيرية أن تثير كل منها نعرة العصبية العربية فى صفوف الشيعة ، فتراجع العرب عن نصرة الموالى واستلانوا لإغراء الحكومة ثم استخدم العرب للقضاء على هذا الخطر الشيعى حتى تحدد نطاق التشيع واتخذ شيئاً فشيئاً صورة فرقة دينية معارضة للأرستقراطية ولنظام القبائل [١] وقد ساعد حكم المختار على إكساب الشيعة سمة المثالية الخيالية بفضل استشهاد زعمائهم وأوليائهم ، كما اجتذب الموالى الذين كان اجتذابهم إلى مثل دعوته ميسوراً لنزعتهم الواضحة إلى الحكم الدينى ، وكان من شأن هذا أن يدفع بالشيعة بعيداً عن التربة العربية ، وفى أن يصبح الإسلام وحده حلقة الارتباط بينها وبين العناصر المضطهدة .

وقد كانت حركة المختار سبباً فى ظهور الكيسانية . وقد اتخذ هذا المذهب نقطة ابتدائه من بدعة السبئية ، والسبئية يسمون أيضاً بالكيسانية [٢] وكيسان الذى تنسب إليه هذه الفرقة شخصية مجهولة حار فى تحديدها المؤرخون . فبين قائل إنه كان زعيما للموالى [٣] وقائل بأنه ليس غير المختار وإنما سماه بهذا الاسم على بن أبى طالب [٤] . وأن أباه كان اصطحبه إلى علىّ وهو صبى فجعل يمسح على رأسه قائلا : يا كيس ياكيس [٥] ويذهب آخرون إلى أن كيسان هذا كان مولى لعلىّ بن أبى طالب أو لمحمد بن الحنفية فاستطاع

---

(١) الشيعة والخوارج ص ٢٣٨
(٢) الشيعة والخوارج ٢٣٩
(٣) نفس الموضع
(٤) الحور العين ص ١٨٢
(٥) الشهيد مسلم بن عقيل ١٩٩

أن يحيط بالعلوم ويقتبس الأسرار عن أحدهما من علم التأويل والباطن وعلم الآفاق والأنفس [١] .

وهكذا فإن صاحب هذا الاسم الذى تنسب إليه الكيسانية شخصية غامضة وغير معروفة على التحديد ، وإنما تدور الظنون حول أن يكون مولى لعلىّ قتل يوم صفين أو تلميذاً لمحمد بن الحنفية أو أن يكون هو نفسه المختار الثقفى أو رئيس حرسه كيسان المكنى بأبى عمرة . وأيًّا كان الأمر فيه فقد عرف الشيعة من أصحاب المختار بالانتساب إليه كما عرفوا باسم السبئية وبالموالى أيضاً إذ كان السبئية والموالى شيئاً واحداً وكان السبئية يسمون بالكيسانية [٢] .

وقد ارتمى المختار فى أحضان السبئية والموالى بكليته محاولا استغلال إيمانهم العميق بآل البيت من أجل بناء مجد شخصى له، ولهذا فقد دفع بهم إلى ميدان العمل ولم يكن يرمى فى بداية الأمر إلى إثارتهم ضد العرب إذ نهج سياسة المهادنة والتوفيق بين هؤلاء وأولئك حتى اجتذب إليه مؤقتاً الأرستقراطية العربية واضطر إلى تأجيل مشروع الثأر للحسين بسبب هذه المهادنة ، ولكن الموالى سخطوا على مهادنة الأرستقراطية العربية والفارسية ودفعوا المختار إلى محاولة القضاء على الفوارق بين الطبقتين وأدرك المختار أن الإسلام هو الذى يجب أن يعطى الموالى حقوقهم المدنية الكاملة فى الحكومة الدينية وليست الأرستقراطية العربية الحاكمة والمهيمنة على شئون الكوفة . ولم ترض هذه الأرستقراطية أن تحد من امتيازاتها عن طيب خاطر فاضطر إلى خوض الكفاح ضدها معتمداً على الموالى والعرب البسطاء .

ولكن هذا النضال انتهى إلى القضاء عليه فقضى على الموالى بوصفهم قوة سياسية وإن استطاعت بقاياهم من بعد أن تعمل على الإطاحة بالسيادة العربية هناك من خراسان حيث مركز العصبية الشعبية الإيرانية .

---

(١) الملل والنحل / جـ ١ ص ٢٣٥ .

(٢) الشيعة والخوارج / ص ٢٤٠ .

وبسقوط المختار وسيطرة الزبيريين على العراق تبددت قوى الشيعة التى انحصرت فى ذلك الحين فى الموالى . وقد ألزمتهم السلطة الحاكمة حدودهم، واستطاع عبد الملك بن مروان بعد قليل أن يعيد توحيد الدولة بالقضاء على الزبيريين ، واستسلم له الخشبية وهم فلول أتباع المختار وكانوا قد ظلوا يدافعون عما بأيديهم فى عين الوردة ونصيبين وتم اندماجهم فى جيش الدولة سنة ٧١هـ [١] .

وخلا لعبد الملك وجه العراق بانتصاره على مصعب فى موقعة مسكن ولكن قلوب أهل العراق لم تكن معه فقد كان السخط على سلطان الشام وتسلط أهله عليهم أمراً لم يكن من السهل الإقرار به ، ويمكننا أن نرد تشيع أهل الكوفة فى هذا الوقت إلى معارضة بنى أمية وحكمهم لا إلى تفانيهم فى حب آل البيت وحرصهم على سلطانهم . وأيضاً فإننا نفهم حركات العراقيين الثورية بنفس الفهم كثورة ابن الأشعث التى قصد بها استقلال العراق بحكم نفسه ضد سيادة الشام ، وكذلك يقال عن ثورة المهالبة وثورة الجارود .

ولم يقع للشيعة أحداث تذكر إلا ما كان من أمر بعض الشيعة الأدعياء المعروفين بالوصفاء أو بالمغيرية وكان على رأسهم المغيرة بن سعيد الساحر وبيان ابن سمعان النهدى .

ويبدو أنهم كانوا من بقية المختارية وكانت لهم صلات ببذور الدعوة العباسية . وكان بعض الكيسانيين يعتقدون أن بياناً هذا قد انتقلت إليه الإمامة عن أبى هاشم بن محمد بن الحنفية [٢] . ويبدو أيضاً أنه كان زنديقاً [٣] ولهذا أحرقه خالد القسرى لقوله بإلهية علىّ وابنه محمد ثم أبى هاشم ثم إليه هو بعد ذلك ، وقد كتب إلى محمد الباقر بذلك ودعاه إلى نفسه وزعم أنه نبى [٤] .

---

(١) الأغانى جـ ٥ / ص ١٥٥ ، جـ ٨ ص ٣٣ ، جـ ١١ ص ٤٧ .
(٢) الملل والنحل / جـ ١ / ص ٢٥
(٣) ميزان الاعتدال جـ ١ / ص ١٦٦
(٤) ميزان الاعتدال جـ ١ / ص ١٦٦

وكان المغيرة بن سعيد ينتقص أبا بكر وعمر ويفضل عليًّا على الأنبياء ، وقد ادعى النبوة أيضاً واشتغل بالسحر وأسعر النيران فى الكوفة بالتمويه والشعبذة حتى أجابه خلق كثير . وقد برئ جعفر بن محمد من بيان والمغيرة واتهمهما بالكذب على آل البيت وكان المغيرة مولى لخالد القسرى[١] فأخذه فقتله وصلبه وأحرقه سنة ١٢٠ هـ[٢] ، وورد فى الأغانى أن بعض مجانين الشيعة ثاروا فى ولاية خالد القسرى وكانوا يصيحون : لبيك جعفراً وهذه الصيحة تتضمن تأليه جعفر الذى لم يكن قد بلغ الثلاثين من عمره بعد ، وقد كان لخبر ثورتهم على خالد وقع شديد ، وكان ساعتئذ على المنبر فاختلط عليه أمره مما أثار السخرية الشديدة منه ، وقد أتى بهم فأمر بإحراقهم بطريقة هى غاية فى البشاعة والقسوة[٣] .

وفضلا عن هذه الأحداث فقد اعتصم الشيعة بالهدوء وعاش آل البيت فى المدينة مبرزين فى المجتمع المدنى ناعمين بتدليل بنى أمية طالما كانوا ملتزمين بالهدوء والدعة ولم يكن بين هؤلاء العلويين رجال ثوريون بالمعنى الحقيقى ، كما أن التجارب السابقة الدامية جعلتهم يخلدون إلى السكون ، إلا أن تيارين واضحين ظهرا بين آل النبى من أبناء فاطمة ، أولهما ذرية الحسن ، وثانيهما ذرية الحسين وكانت ذرية الحسين هى نسل النبى الرئيسى لأن الحسن باع حقه فى ميراث الخلافة بيعة وكس وخزى ، بينما أراق الحسين دمه فداء لحقه وقد خلف الحسين ابنه عليًّا الذى أنقذ فى كربلاء وكان عزوفاً عن السياسة ومخاطرها فرفض عرض المختار عليه أن يعمل بتفويض منه وحذر عمه محمد بن الحنفية منه ، وكان أبناؤه زيد ومحمد وجعفر بن محمد مسالمين مثله .

وكانت الخصومة بين الحسنيين والحسينيين مستمرة ، وكانت تدور حول إخلاص الحسين وتنازل الحسن ، وزاد الخصومة اشتعالا اختلافهما حول

---

(١) الملل والنحل جـ ١ / ص ٢٩٥

(٢) لسان الميزان / جـ ٦ / ص ٧٥

(٣) الأغانى جـ ١٥ ص ١٢١ ، جـ ١٩ / ٥٨

بعض ميراث النبي فى نهاية خلافة هشام بن عبد الملك ، فاحتكم زعيم الحسينيين زيد بن علىّ إلى هشام وقصد إليه فى الرصافة مع بعض قرابته ، وكان يوسف بن عمرو والى الكوفة قد أرغم زيداً — بعد أن استمع هشام فيه إلى أعدائه القيسيين وسجنه وسجن أباه — على الكشف عن مصادر ثروته ثم انتزع منه بالتعذيب اعترافاً بأنه يدين زيد بن علىّ بمبلغ كبير من المال . وقد سأل هشام زيداً وصحبه عن هذه الواقعة فأنكروها ، فرأى هشام ضرورة مواجهتهم بيزيد بن خالد وكان هذا محبوساً فى الكوفة ، فكان عليهم أن يقصدوها وكان قدوم زيد إلى الكوفة حيث العواطف الشيعية المكبوتة بمثابة الشرارة فى برميل البارود[١] .

وفى الكوفة سحب يزيد بن خالد اعترافه الذى انتزع منه بالتعذيب بعد أن ووجه بزيد وصحبه وعاد صحبه إلى المدينة ، ولكن زيداً لم يعد معهم على الرغم من إلحاح يوسف بن عمر عليه فى الرحيل ، فتظاهر بالرحيل إلى خارج الكوفة ولما وصل إلى العذيب لحق به جماعة من شيعة الكوفة وأخبروه أن الناس مجتمعون عليه وما زالوا به حتى رجع معهم على الرغم من نصح بعض أقاربه له بعدم العودة وتوسلهم إليه فى ذلك وتحذيرهم له بما وقع لجده .

وتعلق الشيعة فى الكوفة بزيد وتوجهوا إليه بأنهم يرجون أن يكون هو المنصور وأن يكون ذلك هو الزمان الذى يهلك فيه بنو أمية حيث إن سيادتهم فى الكوفة لا تستند إلا إلى عدة قليلة من جند الشام لا يستطيعون أن يقفوا أمام مائة ألف من الكوفيين يضربون دونه بسيوفهم ، فضلا عن بنى مذحج وهمدان وبكر وتميم ، واغتر زيد بكلامهم ولكنه عول على أن يأخذ لنفسه الحيطة فكان دائماً يغير مركز إقامته وتزوج من أسرتين أقام بينهما ، واستمرت إقامته فى الكوفة عشرة أشهر اشتغل أثناءها بالتمهيد للثورة وضم أنصار جدد فى الكوفة والبصرة والموصل وبايعه خلق كثير حتى أحصى ديوانه خمسة عشر ألفاً وكانت

---

(١) الخوارج والشيعة / ص ٢٥٦

بيعته التى يبايع عليها تقول : « إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وجهاد الظالمين والدفع عن المستضعفين وإعطاء المحرومين وقسم هذا الفيء بين أهل السواد ورد المظالم وإقفال المجمر ونصرنا أهل البيت على من نصب لنا وجهل حقنا » فإذا قبلوا البيعة على ذلك أخذ عليهم عهد الله وذمة رسوله بالوفاء وأشهد الله . وكان بين من بايعوه فيما تذكر الروايات أبو حنيفة وقد أمده بثلاثين ألف درهم وحث الناس على نصرته [١] .

ولبث يوسف بن عمر زماناً طويلا لا يدرى عن حركة الشيعة من حول زيد شيئاً لأنه كان يقيم فى الحيرة حيث القسم الأكبر من جنود الشام ، ولكنه استطاع أخيراً أن يحصل على معلومات تفيد تحركات زيد بواسطة رجلين من الموالى المناصرين لزيد وقعا فى قبضته ، واضطر زيد بعد وقوع هذين الرجلين فى قبضة يوسف إلى أن يعجل بالثورة عن موعدها المضروب فحددت لها ليلة الأربعاء أول صفر سنة ١٢٢ هـ .

وفى يوم الثلاثاء السابق على الموعد أمر يوسف بدعوة أهل الكوفة وجمعهم فى المسجد الجامع ، وهناك حصرهم وغلّق عليهم الأبواب ووضعهم فى حراسة طائفة من الجند الشامى ويبدو أنهم كانوا راضين كل الرضا فيما بعد عن نجاتهم فى المسجد من عواقب ما أقدموا عليه [٢] .

ولما جاء زيد ومعه مائتان وثمانية عشر رجلا جمعهم فى ليلة الأربعاء وسط الظلام والبرد القارس وأراد أن يخلص أهل الكوفة من الحصر لم يحركوا ساكناً ، واضطر زيد إلى الانسحاب من أمام المسجد لأن ألفين من جند الشام كانوا قد حضروا من الحيرة متجهين إليه ، وقاوم زيد جند الشام حتى ردهم فى يوم الأربعاء وثبت لهم يوم الخميس رغم قلة عدد جنده حتى جاءت نجدة الشام مكونة من ثلثمائة من القواسين القيقانية والنجارية فأوقعت بجنده خسائر فادحة ، ولما كان الليل انسحب أهل الكوفة إلى المدينة وتفرقوا فى دورهم

---

(١) شذرات الذهب ج ١ / ص ١٥٨

(٢) تاريخ الدولة العربية ص ٢٣٥ ، الخوارج والشيعة / ٢٥٩

وأصاب زيداً سهم فى جانب جبهته اليسرى فرجع ومعه أصحابه فدخلوا به الكوفة حيث نزعوا منه السهم فى دار بشارع البريد ، وكان قد فارق الحياة فدفنوه فى قاع حبسوا عنها الماء ثم أجروه تمويهاً حتى لايمثل بجثته ، ولكن بعض العبيد دلوا يوسف بن عمر على مكانه فاستخرجت الجثة وأخذت حيث صلبت ، وقطع رأسه وأرسل إلى هشام بن عبد الملك فى الشام وبقيت جثته مصلوبة هناك إلى أن مات هشام [١] .

وكان ابنه يحيى غلاماً حدثاً عند خروجه فاختفى فى نينوى عند مولى لبشر بن بشر بن مروان ، ومن هناك فر إلى خراسان وظل مختفياً فى دار رجل عربى فى بلخ إلى أن مات هشام . وقد ظل الزيديون على ولائهم لزيد فبايعوا يحيى ولكن نصر بن سيار طارده ودفعه إلى التنقل من مكان إلى مكان حتى ألجأه إلى مدينة بيهق على الحدود الغربية وظل يقاتل من جدوا فى طلبه من أتباع نصر . وتوقف لا يدخل حدود ولاية يوسف بن عمر لأنه لم يشأ أن يقع فى قبضة هذا الرجل الذى قتل أباه فقفل راجعاً ناحية الشرق ، واستطاع أن يصل هو والسبعون رجلا الذين كانوا معه إلى هراة ، وقد كان عمال نصر قد أمروا بألا يدعوه يمر فارتحل من هراة إلى جوزجان ونجح فى رد جيش بعث به إليه نصر وأردفه نصر بجيش آخر اشتبك معه يحيى ورفاقه عند الأنهار فأصابه سهم فى صدغه فسقط وحزت رأسه وصلب ثم أحرق حتى صار رماداً أذرى به فى الماء بأمر الخليفة الوليد بن يزيد [٢] .

وهكذا انتهت ثورة زيد وابنه نهاية يرثى لها ، ولكن كان لها شأنها فيما بعد لأنها فتحت الباب أمام العباسيين ليقيموا ملكهم على أنقاض ملك بنى أمية وقد عنى أبو مسلم الخرسانى بالثأر ليحيى بن زيد فقتل قاتليه .

---

(١) راجع الطبرى جـ ٨ ص ٢٧٦ وما بعدها .

(٢) انظر معجم البلدان جـ ١ / ٣٧٠ ، شذرات الذهب جـ ١ / ١٦٧ / ابن كثير جـ ١٠ / ص ٥

وكانت آخر حركات الشيعة فى عهد بنى أمية تلك التى قام بها عبد الله ابن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب . وهو لا يعد من أبناء علىّ ولكن الظروف السياسية فى الكوفة رفعته إلى المستوى الذى مكنه من التعبير عن سخط الشيعة وتمردهم .

وقد قدم عبد الله إلى الكوفة على أثر مصرع يحيى بن زيد مع إخوته ليطلب عطاءه من عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز فأقام بها فترة حيث تزوج بابنة الشرفى بن عبد المؤمن بن شبث بن ربعى الرياحى التميمى .

وحدث أن اضطربت أمور الخلافة بوفاة يزيد بن الوليد وشمل الاضطراب أرجاء البلاد حتى الشام نفسها وتزعزعت سلطة ابن عمر وسائر الولاة ، فقد خرجت كلب على ولأنها للدولة ووصلت إلى حد التمرد والعصيان ، وأثر ذلك على أطراف الدولة فأخذت عرى وحدتها المركزية تنحل فى كل مكان وطفا على سطح الأحداث مغامرون انتهزوا اضطراب أحوال الدولة .

وقد انتهز شيعة الكوفة ، وكان جمهورهم من الزيدية الموتورين ، الفرصة السانحة بوقوع النزاع الدموى بين مروان بن محمد وإبراهيم بن الوليد على الخلافة فأغروا عبد الله بالأمر ودفعوه إلى أن يدعو إلى نفسه فهو وبيته من الهاشميين أولى على كل حال من الأمويين[١] وقد صادف هذا هوى فى نفس عبد الله إذ كان بعض الكيسانية يعتقدون أن الإمامة قد صارت إليه من أبى هاشم ابن محمد بن الحنفية[٢] وكان يلقى عطفاً لزيديته أيضاً لأنه كان زوجاً لابنة زيد بن على[٣] فاقتادوه إلى القصر وحالوا بين صاحب الشرطة وبينه وكان فيهم كثير من الموالى فبايعوه جميعاً ثم خرجوا معه يريدون ابن عمر بن عبد العزيز فى الحيرة فى المحرم سنة ١٢٧ هـ ولكنهم فروا من حوله حين نشب القتال مع جند الشام ولم يثبت إلى جانبه من الشيعة غير الزيدية الموتورين فقاتلوا

---

(١) الأغانى جـ ١١ / ص ٧٠

(٢) الملل والنحل جـ ١ ص ٢٦

(٣) الأغانى / جـ ١٠ ص ٧٤ .

قتال الشجعان وصمدوا ثم انسحبوا إلى الكوفة حيث دارت معركة عنيفة حول القصر وفى شوارع الكوفة حتى حصلوا على الأمان لأنفسهم ولعبد الله بن معاوية على أن يذهبوا حيث شاءوا لا يمنعهم أحد ، فأمر عبد الله بالانسحاب من الكوفة وقصد المدائن وبلاد الجبل حيث تلقى بيعة أهلها وهناك كثر أتباعه وانضم إليه كثير من الموالى . وتمكن من السيطرة على حلوان وقومس وأصبهان والرى وانضم إليه كثير من الفرس ، واستقر لبعض الوقت فى أصبهان ريثما استعمل على تلك المناطق بعض أهله ورفاقه فاستعمل أخاه الحسن على اصطخر وأخاه يزيد على شيراز وأخاه صالحاً على قم وعظم شأنه حتى قصده بنو هاشم هناك فوفد عليه السفاح والمنصور وعيسى بن على وكذلك آوى إليه كثير من بنى أمية مثل سليمان بن هشام وعمر بن سهل بن عبد العزيز بن مروان فمن شاء منهم عملا قلده ، ومن أراد صلة وصله [١] وقد خضعت لعبد الله منطقة شاسعة وانضمت إليه أجزاء كبيرة من بلاد ميديا والأهواز وفارس وكرمان ، وقد كانت المنطقة الشرقية كلها فى ذلك الحين بلا سلطان فمن هجم استتب له امتلاكها ، وبدا عبد الله أهلا للخلافة فتنازل له كثيرون من صغار الثوار والمغامرين الذين غلبوا على بعض تلك المناطق رغبة منهم فى أن يقرهم على ما فى أيديهم ، ومن هؤلاء محارب بن موسى وسليمان بن حبيب وآخرون من بنى أمية وبنى العباس ممن لم يأمنوا على أنفسهم فى أوطانهم فاستتروا جميعاً تحت جناحه القوى .

ولهذا فقد تجمع من حول عبد الله جماعة مختلفة الاتجاهات كل الاختلاف فآوى إليه عبد الله بن على العباسى ، كما آوى إليه بعض الأمويين الآملين فى الظفر بوظيفة أو عطية كسليمان بن هشام بن عبد الملك ، كما انضم إليه أتباع عبد الله بن عمرو بن الحارث الكندى الذى يجعله بعض الكيسانية إماماً بعد أبى هاشم ، وكان الكندى قد ادعى الإلهية وتبعه جماعة ، وقال بالتناسخ

---

(١) الأغانى / ج ١١ ص ٧٠

وفرض على أتباعه كل يوم وليلة سبع عشرة صلاة فى كل واحدة سبع عشرة ركعة ، وقد حدث أن ناظره أحد الصفرية فأرجعه عن مذهبه وثبت على المذهب الخارجى فتبرأ منه أصحابه آنذاك ولحقوا بعبد الله بن معاوية [١] .

وأغرب ما فى الأمر أن ينضوى تحت لوائه أيضاً خوارج الموصل الفارين من وجه مروان بن محمد برئاسة شيبان بن عبد العزيز بعد أن انهارت سيطرة الضحاك بن قيس ، كما لحق به منصور بن جمهور فى أعداد غفيرة من الكلبيين .

ولهذا فإن الزيدية التى كان لها الفضل الأول فى ارتفاع شأنه بادئ ذى بدء لم تعد تعنى عنده إلا شيئاً ثانوياً وضئيل القيمة ، بعد أن التفت حوله كل تلك الفلول التى جمع بينها التعصب على مروان بن محمد عدوها المشترك . ولكن هذا الحلف المصلحى لا يلبث أن يتفرق ، إذ كان تجمع عناصره وقتياً وبحكم الضرورة .

وهكذا قامت فى المشرق الذى لم يكن له سيد فى ذلك الوقت دولة شاسعة سريعة الزوال ، وهى علامة من علامات نهاية العصر . فى الوقت الذى كان مروان يقف فيه فى مواجهة خوارج حضرموت عهد إلى واليه على العراق يزيد ابن عمر بن هبيرة بتولى حرب هذا الحلف الملتف حول عبد الله بن معاوية . وكان مع يزيد قائدان آخران هما عامر بن ضبارة ونباتة بن حنظلة ، وقد تمكن جيش ابن ضبارة من هزيمة عبد الله بن معاوية فى مرو الشاذان سنة ١٣٠ هـ والجأه إلى الفرار نحو كرمان حتى بلغ هراه وهناك علل نفسه بأن يجد ترحيباً لدى أبى مسلم الخراسانى ولكن أبا مسلم أمر بالقبض عليه وسجنه وألقى إلى رجاله بقتله فخنقوه بالأغطية [٢] .

وفى تلك السنوات الأخيرة من عمر الدولة الأموية اختلطت الحدود وامتزجت

---

(١) لسان الميزان/ جـ ٣/ ٢٧٠ ، التبصير /ص ١٩ ، ٧٣ والملل والنحل جـ/١ ص٢٤٤

(٢) انظر / ابن الأثير / جـ ٥ ص ٢٨٤ ومابعدها .

القوى المتباينة والمتعارضة فيما بينهما ، ولكنها تساندت فى نضالها ضد الدولة المتداعية حتى كان الشيعة والخوارج والأمويون والعباسيون والقبائل المتعصبة والموالى يحاربون جميعاً تحت لواء واحد .

على أن تشيع عبد الله كان منذ البداية زائفاً ومشكوكاً فيه ، إذ كان فتى جواداً شاعراً ولكنه لم يكن محمود المذهب فى دينه [١] كما كان يرمى بالزندقة [٢] ويستولى عليه من يعرف ويشهر أمره فيها ، وكان صحابته الذين لا يفترق عنهم من الزنادقة والفساق كعمارة بن حمزة الذى كان يرمى بالزندقة ومطيع ابن إياس وكان زنديقاً مأبوناً ، والبقلى الذى كان لا يؤمن بالبعث وأيضاً كان من أصحابه الحسين بن عبد الله بن عبيد الله بن العباس وكان يرمى بالزندقة ، وكان صاحب شرطته دهريًّا لا يؤمن بالله ، وكان يعس بالليل فلا يلقاه أحد إلا قتله ، وأيضاً فقد كان عبد الله نفسه يغالى فى تقدير ذاته حتى ليزعم أنه يوحى إليه [٣] .

وليس شك فى أن الثورات المتعاقبة للشيعة قد أثمرت ثمرة جناها بنو العباس ولم ينل العلويون منها شيئاً على الرغم من أنهم رووها بدمائهم .

٢

تدور عقائد الشيعة فى أصولها على فكرة الإمام والإمامة [٤] . ويجمع الشيعة بفرقهم المختلفة على مشايعة علىّ على الخصوص ، والقول بإمامته وخلافته نصًّا ووصية إما جليًّا أو خفيًّا ، ويعتقدون أن الإمامة لا تخرج من أولاده لا يخالفهم فى ذلك غير الغلاة من الروافض الذين أخرجوها إلى جماعة

---

(١) الأغانى جـ ١١ / ص ٦٨ .

(٢) لسان الميزان جـ ٣ / ص ٣٦٣ .

(٣) الأغانى / جـ ١١ ص ٧١ والملل والنحل جـ ١ / ٢٤٤ .

(٤) انظر فى ذلك الملل والنحل / جـ ١ / ٢٣٤ ، الفرق بين الفرق / ص ٣٥ ، تاريخ اليعقوبى جـ ٢ / ١٢٥ ، مقدمة ابن خلدون / ١٩٦ ومابعدها ، العقيدة والشريعة ص ١٨٢ وفرق الشيعة للنوبختى ص ٢٠ / ٢١

من غير قريش إما بدعواهم وصية بعض الأئمة إليهم ، وإما بدعواهم تناسخ الأرواح من الإمام إلى من زعموا أن الإمامة انتقلت إليه [١] أما جمهور الشيعة فيذهبون إلى أنها لا تخرج عن أولاده ، وإن خرجت فبظلم يكون من غيره أو بتقية من عنده ، وكذلك يجمعون على أن الإمامة قضية كل مسلم ، وهى ليست قضية مصلحية تناط باختيار العامة وينتصب الإمام بنصبهم ، بل هى قضية أصولية لأنها ركن الدين الذى لا يجوز للرسول إغفاله وإهماله ولا تفويضه إلى العامة وإرساله ، وأيضاً يجمعهم القول بوجوب التعيين والتنصيص وثبوت عصمة الأئمة وجوباً عن الكبائر والصغائر ، والقول بالتولى والتبرى قولا وفعلا ، وعقداً إلا فى حال التقية . ويخالفهم الزيدية فى ذلك، وهم خمس فرق كيسانية وزيدية وإمامية وغلاة وإسماعيلية [٢] وسنقتصر فى درسنا على الكيسانية والزيدية لأنهما فى اعتقادنا أشهر فرق الشيعة فى عصر بنى أمية وأكثرها تأثيراً فى أحداث العصر وفكره .

ويجمع الكيسانيين القول بأن الدين طاعة رجل ، حتى حملهم ذلك على تأويل الأركان الشرعية من الصلاة والزكاة والحج وغيرها على رجال ، وذهب بعضهم إلى ترك القضايا الشرعية بعد الوصول إلى طاعة الرجل ، كما اندفع بعضهم إلى عدم الاعتداد بالقيامة نتيجة لذلك ، وذهب بعضهم إلى القول بالتناسخ والحلول والرجعة بعد الموت [٣] ويعتقد الكيسانيون فى أن الإمامة حق علىّ وبنيه ، فهو الذى عينه صلوات الله وسلامه عليه بنصوص ينقلونها ويؤولونها على مقتضى مذهبهم ، فكل من ولى الخلافة إذن منذ قامت غاصب جائر لأن النبى أوصى لعلىّ من بعده ، فهو وصيه ، وهو لذلك إمام بالنص لا بالانتخاب ، وقد أوصى علىّ لمن بعده بالنص على ابنه محمد المعروف بابن الحنفية ، ولكنهم اختلفوا فيه فمنهم من قال بأنه لم يمت ويرجع ، ومنهم من أقر

---

(١) أصول الدين ص ٢٧٦ .
(٢) الملل والنحل جـ ١ ص ٢٣٥
(٣) الملل والنحل جـ ١ / ٢٣٦

بموته وبانتقال الإمامة منه إلى ابنه أبى هاشم [١] واختلفوا فيمن انتقلت إليه من بعده ، فمنهم من قال إنها بقيت فى عقبه وصية بعد وصية ، وأنه أوصى إلى محمد بن على بن عبد الله بن عباس ، فجرت فى أولاده حتى صارت إلى أبى العباس ، ومنهم من قال إنها آلت إلى ابن أخيه الحسن بن على بن محمد ابن الحنفية ، وغيرهم قال إن أبا هاشم أوصى إلى أخيه على ، وأوصى على إلى ابنه الحسن ، فالإمامة عند هؤلاء فى بنى الحنفية لا تخرج إلى غيرهم [٢] وقد ذهب بعضهم إلى أن الإمامة انتقلت إلى غير عقبه واختلفوا فى ذلك اختلافاً كبيراً بين أن يكون هذا الذى انتقلت إليه بيان بن سمعان النهدى أو عبد الله ابن عمرو بن الحارث الكندى أو عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر ابن أبى طالب .

وأشهر جماعات الكيسانية المختارية من أصحاب المختار بن عبيد الثقفى وقد قال بإمامة محمد بن الحنفية بعد علىّ ، وقيل بل بعد الحسن والحسين [٣] ، فكان يدعو الناس إليه ويظهر أنه من رجاله ودعاته ويذكر علوماً مزخرفة ينوطها به ، ويذكر الشهرستانى أن الذى دفعه الى الانتساب إليه حسن اعتقاد الناس فيه وامتلاء القلوب بحبه ، لأنه كان كثير العلم غزير المعرفة وقاد الفكر مصيب الخاطر فى العواقب ، وقد أخبره أمير المؤمنين عن أحوال الملاحم ، وأطلعه على مدارج المعالم وقد اختار العزلة وآثر الخمول على الشهرة ، وقيل إنه كان مستودعاً علم الأمانة حتى سلم الأمانة إلى أهلها وما فارق الدنيا حتى أقرها فى مستقرها [٤] .

وقد تبرأ ابن الحنفية من شعوذات المختار وقوله بالبداء على الله فى القول والعلم ، وتبرأ من تأويلاته الفاسدة ومخاريقه المموهة كالقول بالكرسى وانتصار

---

(١) الملل والنحل / ج ١ ص ٢٥
(٢) الملل والنحل / ج ١ ص ٢٤٤
(٣) الملل والنحل / ج ١ ص ٢٣٧
(٤) الملل والنحل / ج ١ ٢٤١

الملائكة له وحديث الحمامات البيض والأسجاع التى ألفها أبرد تأليف مشهور[١] هى كلها أمور ليست من عقيدة الكيسانية فى شىء .

وعقيدة الكيسانية الأصولية فى الإمام ليست كما ينظر إليه أهل السنة خليفة أو نائباً عن صاحب الشريعة فى حفظ الدين ، إذ يحمل الناس على العمل بما أمر الله ، وهو رئيس السلطة القضائية والإدارية والحربية ، ولكنه ليس لديه سلطة الشريعة إلا تفسيراً لأمر أو اجتهاداً فيما ليس فيه نص . أما عند الكيسانية ففضلا عن كون الطاعة للإمام جزءا من الإيمان فهو أكبر معلم لأنه ورث علوم النبى وهو ليس شخصاً عادياً بل هو فوق الناس لأنه معصوم من الخطأ ، وهناك نوعان من العلم : علم الظاهر وعلم الباطن وقد علم النبى هذين النوعين لوصيه علىّ الذى علم منه صلى الله عليه وسلم باطن القرآن وظاهره ، وأطلعه على أسرار الكون وخفايا المغيبات ، وكل إمام ورّث هذه الثروة العلمية لمن بعده ، وكل إمام يعلم الناس فى وقته ما يستطيعون فهمه من هذه الأسرار ، ولذلك كان الإمام أكبر معلم وهم لا يؤمنون بالعلم ولا بالحديث إلا إذا روى عن هؤلاء الأئمة .

فالإمام عندهم نمط ممتاز من البشر محيط بالعلوم الإلهية ، وهى قبس يضمن طهارته من كل إثم ، ويعصمه من كل خطأ ، ويفيض على قلبه وعقله معارف ربانية لا يدركها سواه .

وقد غالى الكيسانيون فى إحاطة الإمام بهذه العلوم اللدنية ، فذهبوا إلى أن محمد بن الحنفية أحاط بالعلوم كلها التى عهد بها إليه أبوه أو أخوه وهى علوم الأسرار والتأويل والباطن ، وانتهى هذا عندهم إلى وجوب انفراد الإمام بتأويل الشريعة ، فهو الوحيد القادر على ذلك وليس لأحد سواه أن يجتهد أو يرى رأياً . وقد جعلهم هذا يعتقدون بضرورة طاعة الإمام إذ أن طاعته ليست غير طاعة القانون الإلهى . فالدين عندهم طاعة رجل فمن لا يطيع الإمام

---

(١) الملل والنحل جـ ١ / ص ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ص ٢٤١

ناقص الإيمان لا يكمل إيمانه إلا بطاعته ولو لم يتمسك بقواعد الإسلام[١] فهم يبذلون له الطاعة باعتباره رجلا رفيع المنزلة محيطاً بعلوم ما وراء الطبيعة .

وهم يدينون بالتقية ، وهى اتقاء الأذى والضر بالتظاهر بغير ما فى الاعتقاد حفاظاً على الحياة أو المال أو العرض أو التدبير لخطة مرسومة ، كأن يظهروا طاعتهم للحاكم ويوافقوا خصومهم من كفار أو خوارج أو سنية ويدينوا بمذهبهم ، فيصلون صلاتهم ويصومون صيامهم تقية لا عقيدة عن رضا . وقد اتخذوا هذا الأصل وسيلة من وسائل الدعوة والمقاومة السرية ، وهى ضرورة للتعمية على الأعداء وإنجاح التدبير للانقضاض حين يحين الموعد المناسب .

ولهم فى التقية أقوال كثيرة مثل قولهم « لا دين لمن لا تقية له » وقولهم يجب إظهار الكفر لأدنى مخافة أو طمع ، وقد حملوا بيعة علىّ لأبى بكر وعمر وعثمان على التقية ، وكذلك عدوا تنازل الحسن وصلحه مع معاوية . وقد سئل أبو جعفر عن الرجلين اللذين أخذا مع حجر بن عدى وطلب إليهما البراءة من علىّ فبرئ أحدهما فنجا وأبى الآخر فقتل فقال أبو جعفر أما الذى برئ فرجل فقيه فى دينه وأما الذى لم يبرأ فقد تعجل إلى الجنة ، وقد ساندوا دعوى التقية بتأويل آيات القرآن الكريم وفق مذهبهم ، ففسر بعضهم قوله تعالى : « أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا » بأن المراد صبرهم على التقية ، وبأن أصحاب الكهف كانوا أعظم الناس تقية لأنهم كانوا يشهدون الأعياد ويشدون الزنانير فأعطاهم الله أجرهم مرتين كما فسر بعضهم قول الله تعالى : « يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك » بأن المقصود ما أنزل إليه من خلافة علىّ ، كما أولوا قوله تعالى : « قل إن تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله » بأنه يجب على الشيعى منهم أن يكتم ولاءه الحق .

ومن الأصول الهامة التى يدين بها الكيسانيون القول بالرجعة فقد أنكر جماعة منهم موت محمد بن الحنفية ، وكذبوا الأنباء التى جاءتهم بموته ، واعتقدوا

---

(١) الملل والنحل جـ ١ / ص ٢٣٦ .

أنه يقيم فى جبل رضوى على مسيرة سبعة أيام من المدينة وأن عودته ستكون من هذا المكان ليملأ الأرض عدلا كما ملئت جوراً .

ويذهب الشهرستانى إلى أن هذا أول حكم بالغيبة والعود بعد الغيبة حكم به الشيعة ، وجرى ذلك فى بعض الجماعة حتى اعتقدوه ديناً وركناً من أركان التشيع[١] ولكنه يذكر فى موضع آخر أن السبئية زعموا أن علياً حى لم يقتل ، وأنه سينزل بعد ذلك إلى الأرض فيملأ الأرض عدلا كما ملئت جوراً ، وأن ابن سبأ أظهر هذه المقالة بعد انتقال علىّ واجتمعت عليه جماعة ، وهم أول فرقة قالت بالتوقف والغيبة والرجعة[٢] .

والرأى عندنا أن أول من ادعى هذا القول هو ابن سبأ عندما قال : إنى لأعجب ممن يقول برجعة عيسى ولا يقول برجعة محمد والله تعالى يقول : « إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد» ،وقد زاد على هذا فزعم أن محمداً أحق بالرجوع من عيسى ، ثم بنى على ذلك زعمه بأنه علياً سيرجع ، ورفض أن يصدق حين مقتله أنه مات ، وقال لو أتيتمونا بدماغه فى سبعين صرة ، وأقمتم على قتله سبعين عدلا ، ما صدقنا موته فإنه حى ويعود فيملأ الأرض عدلا ، وهو يجىء فى السحاب والرعد صوته والبرق تبسمه[٣] . وقد نقل الكيسانية هذه العقيدة فى الرجعة إلى القول بفكرة المهدى ، فزعموا أن محمد ابن الحنفية هو الإمام المهدى الذى ينشر العدل ، ولما كان إمامهم حياً مقيما برضوى بين أسد ونمر يحفظانه ، وعنده عينان نضاختان بماء وعسل ، فإنه سيعود ليعيد العدل إلى الأرض التى ملئت جوراً ،فهم إذن ينتظرون هذا الإمام المهدى ، ومن هنا نشأت عقيدة المهدى المنتظر التى سادت عند الشيعة جميعاً ما عدا الزيدية .

ولم يكن الكيسانيون أول من استخدم هذه الكلمة فى وصف الإمام إذا

---

(١) الملل والنحل / جـ ١ / ص ٢٤٢

(٢) الملل والنحل / جـ ١ ص ٢٩٠

(٣) الملل والنحل جـ ١ / ص ٢٩٠ الفرق بين الفرق ص ٢٢٣

صح أنها جاءت فى السنة الشريفة صفة للخلفاء الراشدين فى قوله صلى الله عليه وسلم : « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين » وكذلك وصف بها حسان بن ثابت الرسول وهو يرثيه بقوله :

جزعت على المهدى أصبح ثاوياً ... يا خير من وطئ الحصى لا تبعد

بأبى وأمى من شهدت وفاته ... فى يوم الاثنين النبى المهتدى

ثم أخذت الكلمة يتحول معناها ويقصر على علىّ بن أبى طالب ، ثم أطلقت على الحسين بعد استشهاده فوصف بأنه المهدى ابن المهدى ، ولكن الكيسانية كانوا أول من نقل الكلمة إلى معناها الاصطلاحى الجديد[١] بقولهم إن محمداً المهدى لم يمت ، وإنما هو وأصحابه يقيمون فى جبل رضوى فى الحجاز على سبع مراحل من المدينة وإنهم أحياء هنالك يرزقون . وأنه يرجع فيملأ الأرض عدلا .

وقد لزمت الكلمة صفة المنتظر تعبيراً عن تطلع الناس إلى عودته ، وكان هذا سبباً فى أن الشيعة إذا أخفوا إمامهم عن الأمويين يقولون عنه مهدى منتظر أيضاً ، فإذا جاء ميقات خروجه خرج الناس معه ليزيل المظالم ويحقق العدل .

وكان هدف الشيعة من ذلك أن يباعدوا بين أنفسهم واليأس من عودة الخلافة إليهم لتظل لهم قوتهم ، وإذ ذاك كان لا بد لهم من هدف يعلقون عليه أنظارهم خلال الصراع الدموى مع الأمويين وهو الثقة فى رجعة إمام مهدى ، يقوض ملك بنى أمية ، ويثأر لهم ، وكان هذا دافعاً لهم إلى الجلد والصبر ، وأيضاً كان لهذا علاقة وثيقة بالتقية .

ومن عجب أن الزعم بفكرة المهدى قد جاوز الشيعة إلى بعض بنى أمية فزعموا أن لهم مهديا سموه بالسفيانى وراجت الدعوة له . ولعل خالد بن يزيد ابن معاوية يكون أول من دعا إلى هذا ليجمع الناس حوله بعد أن غلبه مروان

---

(١) أحمد أمين / المهدى والمهدية / ص ٥

ابن الحكم على الملك وتزوج أمه [١] فسخط السفيانيون لمزايلة الحكم لهم إلى بنى مروان ، وكانوا يأملون فى عودته إليهم ببث هذا الأمل فى نفوس أتباعهم .

وقد شعر الشيعة بخطر دعوى الأمويين ، فزعموا أن المهدى والسفيانى سيلتقيان وسيبايع الناس المهدى بمكة بين الركن والمقام ثم يدعوهم إلى قتال السفيانى ومن معه من أعداء الله وأعدائهم فيسارعون إلى طاعته ويخرجون معه إلى الشام لقتالهم [٢] . وقد خشى المروانيون من الدعويين ، وأرادوا أن يقطعوا عليهم جميعاً حلمهم بالواقع فأوعزوا إلى شعرائهم بالإلحاح على وصفهم بهذه الصفات على أنها حقيقة واقعة ودفعوهم إلى الادعاء بأن القائم بالحكم هو المهدى الذى ينتظره الناس ، وذلك ليقضوا على الأمل فى مهدى أو سفيانى بالواقع .

وقد وجدت هذه العقيدة رواجاً شديداً وذيوعاً واسعاً حتى قال الناس عن عبد الله بن معاوية بن جعفر فى خروجه إنه السفيانى الذى كان يذكر [٣] وكذلك قالوا عن الحارث بن سريج زعيم المرجئة فى ثورته فيما وراء النهر فقد ادعى أنه المهدى الذى بعثه الله لإنصاف المظلومين وأقام دعوته على الرجوع إلى القرآن والسنة والشورى . ومن الطريف أن العصبيات القبلية هى الأخرى قد اشتركت فى الزعم بهذا القول ، فزعموا أن لهم مهدياً سموه بالقحطانى وذاع هذا القول وادعاه يزيد بن المهلب فى ثورته سنة ١٠٢ هـ ، وأقام دعوته هو الآخر على الرجوع إلى القرآن والسنة وسيرة عمر بن عبد العزيز .

ويرجع السبب فى ذيوع هذه العقيدة إلى أحاديث كثيرة راجت منبئة عن مهدى عادل يعيد إلى الأرض السلام والعدل فى وقت كانوا يشعرون فيه بالقلق والظلم ، وإلى أن نفسية الناس تكره الجور وتحب العدل ، فإذا لم يتحقق العدل اشرأبت نفوسهم لحاكم عادل ، فمن الناس من لجأ إلى الحلم فأمل

(١) الأغانى جـ ١٦ ص ٨٨

(٢) ضحى الإسلام جـ ٣ ص ٢٣٩

(٣) الطبرى جـ ٩ ص ١٣٨

فى العدل بعد أن عجز عن تحقيقه ، وقد لعب الوضع دوراً كبيراً فى صياغة هذه الأحلام والآمال والأخبار التى تنبئ بظهور المهدى حسب الظروف والأحوال . وليس شك فى أن مثل هذا الخبر الذى ينسب إلى عمر بن الخطاب أنه قال : من ولدى رجل بوجهه شجة يملأ الأرض عدلا[١] قد وضع أثناء خلافة عمر بن عبد العزيز .

وتختلف عقيدة الزيدية عن عقيدة الكيسانية فى بعض الأصول والفروع كما أنها تتميز عنها وعن جميع الفرق الشيعية بميزة الاعتدال والبعد عن الغلو نتيجة لتتلمذ رأسها زيد بن على للمعتزلة .

وقد كان زيد بن على يؤمن بحقوق بيته فى الخلافة ، غير أنه يختلف عن جميع الشيعة فى أنه لم يكن يؤمن بالنص والتعيين فى الإمامة . ولم يكن يقصرها على واحد من أبناء علىّ تتسلسل فى عقبه ، كما يذهب الكيسانية الذين يقولون بالنص على محمد بن الحنفية وغيرهم ، فهو يجعلها حقاً لكل فاطمى ولا يجوزها فى غير أبناء فاطمة على أن يجمع إلى ذلك صفات العلم والزهد والشجاعة والسخاء والقدرة على الخروج طلباً للإمامة [٢] فكل فاطمى اتفقت له تلك الصفات كان إماماً واجب الطاعة سواء أكان من أولاد الحسن أم من أولاد الحسين ، ولهذا فقد قالت طائفة منهم بإمامة محمد وإبراهيم ابنى عبد الله بن الحسن بن الحسن اللذين خرجا فى أيام المنصور وقتلا على ذلك ، وجوز الزيدية أيضاً خروج إمامين فى وقت واحد فى قطرين مختلفين على أن يجمع كل منهما تلك الصفات ، ويكون كل منهما واجب الطاعة [٣] .

وكان زيد يجوّز إمامة المفضول مع وجود الأفضل وبذلك جوز إمامة أبى بكر وعمر مع وجود علىّ على الرغم من أنه كان فى اعتقادهم أفضل الصحابة

---

(١) تاريخ الخلفاء ص ١٥٢ .

(٢) الملل والنحل / ج ١ ص ٢٤٩ / ٢٥٠

(٣) الموضع نفسه .

جبريل وأبا بكر وعمر ، وبعضهم يكفرونهما ويلعنون عائشة وحفصة ، ويتخذون لعنهم قربى إلى الله [١] كما يقولون بالغيبة وبرجعة الإمام المهدى المنتظر الذى لما يمت ويعود ليملأ الأرض عدلا آخر الزمان .

وهكذا يمكننا أن نجعل آراء الشيعة فى أنهم يتفقون على أن الإمامة ليست من المصالح العامة التى تفوض إلى نظر الأمة واختيارها ، إذ هى ركن الدين وقاعدة الإسلام ، وهى واجبة على كل مسلم ولا غنى للمسلمين عنها ، ولذلك لا يجوز لنبى إغفالها ولا تفويضها إلى الأمة ، وإنما يجب عليه تعيين الإمام لهم .

وقد عين النبى صلى الله عليه وسلم علياً بنصوص ينقلونها ويؤولونها على مقتضى مذهبهم ، والإمام عندهم — فيما عدا الزيدية — يمتاز عن سائر البشر بصفات العصمة من الخطأ وبمعرفة سر التشريع وبالرجوع بعد الغيبة كما يدينون خلافاً للزيدية بالتقية ، ويدينون أبا بكر وعمر ويكفرون عثمان وجماعة من الصحابة ، بينما يذهب الزيدية إلى تبجيلهما وإن اعتقدوا أن علياً أفضل منهما ويجيزون إمامتهما تمشياً مع عقيدتهم فى إمامة المفضول على الرغم من وجود الفاضل والأفضل .

٣

كان اقتران نشأة السبئية بالموالى وتأثيرها فى الكيسانية سبباً فى أن أطلق على السبئية اسم الكيسانية ، وقد قوى هذا الاتجاه ما يذهب إليه بعض المؤرخين من أن كيسان كان زعيما للموالى . وقد أدى ذلك إلى الزعم بأن السبئية والموالى كانوا شيئاً واحداً [٢] .

واعتماداً على هذا الاستنتاج ، مضى بعض المؤرخين فزعم أن التشيع بوصفه

---

(١) شرح نهج البلاغة جـ ٤ / ٤٥٥ .

(٢) الخوارج والشيعة / ص ٢٤٠ .

وجرت بينهم وبين زيد مناظرة لدى خروجه ، فقد اجتمع به رؤساؤهم الذين كانوا قد بايعوه من قبل ويوسف بن عمر والى الكوفة يجد فى طلبه ، وابتدروه بسؤالهم : « ما قولك يرحمك الله فى أبى بكر وعمر ؟ » وأجابهم زيد : « رحمهما الله وغفر لهما ما سمعت أحداً من أهل بيتى يتبرأ منهما ولا يقول فيهما إلا خيراً » ، فقالوا له : « فلماذا تطالب بدم أهل هذا البيت إلا أن وثبوا على سلطانكم فنزعوه من أيديكم ؟ » قال زيد : « إنا كنا أحق بسلطان رسول الله من الناس أجمعين ، ولكن القوم استأثروا علينا ودفعونا عنه ولم يبلغ ذلك عندنا بهم كفراً فقد ولوا فعدلوا فى الناس وعملوا بالكتاب والسنة » ، فقالوا : « لم يظلمك هؤلاء إذا كان أولئك لم يظلموك فلماذا تدعو إلى قتال قوم ليسوا لك من الظالمين ؟ » قال زيد : « إن هؤلاء ليسوا بأولئك هؤلاء ظالمون لى ولكم ولأنفسهم وإنما ندعوهم إلى كتاب الله وسنة نبيه وإلى السنن أن تحيا وإلى البدع أن تطفأ فإن أنتم أجبتمونا سعدتم وإن أنتم أبيتم فلست عليكم بوكيل » ، ففارقوه ونكثوا بيعته ، وقالوا إن إمامنا منذ اليوم جعفر بن محمد بن على بن الحسين هو أحق بالأمر ولا نتبع زيداً فليس لنا بإمام . فسماهم زيد بالرافضة [١] .

وعلى الرغم من أن تلك الطائفة قد وجدت بعد وجود الزيدية فإن اسمها وجد من قبل ولم يكن إطلاق زيد عليهم هذه التسمية لأول مرة ، فقد سبقه إلى إطلاق الكلمة المغيرة بن شعبة وقد كان إطلاقها على الشيعة الغلاة [٢] . ويرى فلهوزن أن الرافضة ليس إلا اسما حديثاً لشىء قديم هو السبئية [٣] وليس شك أن عقائد الرافضة لا تخرج عن أن تكون عقائد السبئية من الغلو الذى يصل إلى حد الكفر والذهاب مذاهب غريبة فى تقديس الأئمة والسمو بهم إلى مراتب الأنبياء ، بل تفضيلهم أحياناً عليهم ، والقول بإلهيتم عن طريق الحلول والتناسخ . ومنهم من يفضل علياً على النبى صلى الله عليه وسلم ، ويسب

---

(١) الطبرى جـ ٨ / ٢٧٢ ، نقد العلم والعلماء / ١٠٣

(٢) الطبرى جـ ٨ ص ٢٧٣

(٣) الخوارج والشيعة ٢٥٨

امتدت المناظرة إلى اشتراط زيد الخروج شرطاً فى كون الإمام إماماً حتى قال الباقر لزيد يوماً : « على قضية مذهبك فوالدك ليس بإمام لأنه لم يخرج قط ولا تعرض للخروج »[١] .

ولقد ظلت الزيدية على تسامحها واعتدالها ، وكذلك الفرق المتشعبة عنها ، فقد أخذت تلك الفرق بإمامة المفضول حتى وقت بعيد ، ولم تعدل عنها إلا فى مفتتح القرن الرابع عند خروج ناصر الأطروش فى خراسان [٢] .

وقد ظل الزيديون يترسمون المعتزلة فى الأصول حذو القذة بالقذة ، ويعظمون أئمتهم أكثر من تعظيمهم أهل البيت ، بينما يتبعون فى الفروع أبا حنيفة إلا فى مسائل قليلة وافقوا فيها الشافعى والشيعة [٣] .

وهكذا نرى أن أهم ما يميز آراء الزيدية هو الاعتدال والميل إلى التحرج ، فلم يضفوا على أئمتهم خصائص روحية تميزهم عن البشر ، فالإمام عندهم وإن كان عالماً فهو ليس معصوماً من الخطأ كما زعم الكيسانية ، وهم فى أصول مذهبهم لا ينكرون خلافة أبى بكر وعمر وإن ذهبوا إلى أن علياً أفضل منهما ، ولم يذهبوا مذهب الكيسانية والرافضة فى تخطئتهما وتكفيرهما لاغتصابهما حقه ولمنعهما فاطمة الزهراء ميراث فدك ، وفى عدم إقرارهم بحجة أبى بكر وعمر فى ذلك ، وهى قول النبى نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة ، وكان الكيسانيون والرافضة يتخذون ميراث فدك سنداً يعتمدون عليه فى مطالبتهم بوراثة الإمامة .

وكذلك لم يكن الزيديون يدينون برجعة مهدى منتظر ، كما لم يدينوا بالتقية ، ولم يحلوا زواج المتعة مخالفين فرق الشيعة جميعاً فى ذلك . وقد نتج عن اعتدال الزيدية وإسماحها ظهور طائفة الرافضة التى رفضت هذا الاعتدال فيما يختص بصحابة الرسول وبأبى بكر وعمر بالذات .

---

(١) الملل والنحل جـ ١ ص ٢٥١ — ٢٥٢

(٢) الملل والنحل جـ ١ / ٢٥٤

(٣) الملل والنحل جـ ١ ص ٢٦٤ .

وذلك لمصلحة دينية هى تسكين الفتنة وتطييب القلوب ، فقد كان عهد الحروب التى جرت فى أيام النبوة قريباً وسيف علىّ لما يجف بعد من دماء المشركين والضغائن فى صدور القوم من طلب الثأر كما هى ، فما كانت القلوب تنقاد إليه وكانت المصلحة أن يقوم بالأمر من عرف باللين والتودد والسبق والقرب من رسول الله[١] .

وليس شك فى أن هذا الاعتدال أثر من آثار تتلمذ زيد على واصل بن عطاء فى الأصول[٢] حتى ليذهب الشهرستانى إلى أن الزيدية جميعاً صاروا من المعتزلة [٣] .

وقد كان فى اعتدال أتباع زيد سبباً فى عداء الإمامة لهم ، وكانوا ينصون على تسلسل الإمامة من أبيه على زين العابدين إلى أخيه محمد الباقر من دونه وأيضاً رفض مذهبه بعض أهل الكوفة لمخالفته عن مذهب آبائه فى الأصول والتبرى والتولى ، وسمى هؤلاء بالرافضة لرفضهم مذهب الزيدية [٤] .

وكان اعتراض هؤلاء عليه أنه لا يجد غضاضة فى التتلمذ لواصل وتحصيل الأصول عليه ، على الرغم من اعتقاده بأن علىّ بن أبى طالب ما كان على يقين فى حروبه التى جرت بينه وبين أصحاب الجمل وأهل الشام ، وأن أحد الفريقين منهما كان على الخطأ لا بعينه [٥] ، ولأنهم رأوه لا يتبرأ من الشيخين فرفضوه .

وقد جرت بينه وبين أخيه محمد الباقر مناظرة بشأن تتلمذه على واصل بن عطاء ، واقتباسه العلم عن رجل يجوّز الخطأ على جده فى قتال الناكثين والقاسطين ، ويتكلم فى القدر على غير ما ذهب إليه أهل البيت . كما

---

(١) الملل والنحل جـ ١ / ص ٢٥١

(٢) الملل والنحل جـ ١ / ص ٢٥٠

(٣) الملل والنحل جـ ١ / ص ٣٢

(٤) الملل والنحل جـ ١ / ٣٢

(٥) الملل والنحل جـ ١ / ٢٤٩

مذهبًا دينيًّا فارسى الأصل لأن جمهور الموالى فى الكوفة كانوا من الفرس . فقد زعم دوزى أن الشيعة فى حقيقتها فرقة فارسية ، وأكد زعمه هذا بما ظهر من الفارق بين الجنسين العربى الذى يحب الحرية والفارسى الذى اعتاد الخضوع كالعبيد . ولم يكن يعرف فى الحكم غير مبدأ الوراثة ، وأنهم لهذا اعتقدوا أنه ما دام محمد لم يترك وريثًا فإن عليًّا هو الذى كان يجب أن يخلفه ، وأن الخلافة يجب أن تكون وراثية فى آل علىّ ، وكل الخفاء ما عدا عليًّا وآله مغتصبون لا تجب طاعتهم ، وقوى هذا الاعتقاد عندهم كراهيتهم للحكومة وللسيطرة العربية ، لأنهم قد اعتادوا أن يروا فى ملوكهم أحفاداً منحدرين من أصلاب الآلهة ، فنقلوا هذا التوقير الوثنى إلى علىّ وذريته[١] .

وقد ذهب أوليرى أيضًا نفس المذهب فزعم أن أسباباً أخرى زادت من إحساس الكراهية من جانب الفرس المسلمين نحو العرب ، وهى أن عادتهم أن ينظروا إلى كل ملك من ملوك الساسانيين من أسرة الأبطال الأسطوريين القدماء (كايانى) ، باعتباره باغيًا ، وهو لفظ لا يفهم منه معنى إله تمامًا ، وإنما يفهم منه حلول الإله حيث تتوارث الروح المقدسة عن طريق التناسخ بين الحكام المتعاقبين ، ولهذا كان المسلمون من الفرس على استعداد لعبادة الخليفة كما عبدوا ملوكهم من قبل[٢] .

ونحن إذن بإزاء مسألتين ، الأولى : ما إذا كانت آراء الشيعة تلائم الفرس ، والثانية : ما إذا كان التشيع فارسى الأصل ؟

والحقيقة أن الشيعة بذهابهم إلى القول بوراثة آل البيت للحكم قد صادفوا فى نفوس الموالى الفرس هوى لأن الطاعة المطلقة للإمام كانت فى نظرهم الواجب الأعلى ، والإمام فى نظرهم هو كل شىء والخضوع الأعمى هو جوهر اعتقادهم .

---

(١) Dozy, Essai sur l'Histoire de l'Islam, pp. 220.

(٢) اوليرى / الفكر العربى ومكانه فى التاريخ / ص ١٠٥

أما إن التشيع فارسى الأصل فهذا أمر تنكره الحوادث التاريخية التى تؤكد جميعها أن التشيع كان قائماً فى الدوائر العربية أولا ، ثم انتقل بعد ذلك بواسطة السبئية إلى الموالى .

ويذهب برنارد لويس إلى أن العرب كانوا فى بادئ الأمر أصحاب الدور الرئيسى فى التشيع وأنهم هم الذين جلبوه إلى فارس حيث مدينة قم الحربية[١] . فالتشيع حركة عربية خالصة وحزب سياسى صرف التف حول مطالب علىّ فى الخلافة ، ونشأ عن نقله العاصمة إلى الكوفة ، ثم نقل الأمويين لها إلى الشام فناصرت الحركة الوطنية العراقية الشيعة وبدأ تطور حركة الشيعة الحقيقى بعد استشهاد الحسين فى كربلاء ، فقد أخذ الشيعة يسعون إلى النصر بصفتهم طائفة إسلامية بعد أن فشلوا فى كسبه كحزب عربى ، ونجحوا فى نشر دعوتهم بين الجماعات المتذمرة وبخاصة بين الموالى الذين كانت تؤثر فيهم فكرة قيام خليفة شرعى من نسل الرسول أكثر مما تؤثر فى العرب أنفسهم ، وأصبح التشيع فى أساسه تعبيراً فى مصطلحات دينية عن معارضة الدولة والنظام القائم الذى كان قبوله يعنى موافقة السنة . ولم تقتصر معارضة النظام القائم على الموالى بحال من الأحوال إذ قام العرب فى العواصم الثائرة وبخاصة فى الكوفة مسقط رأس التشيع بدور هام فى حركة المعارضة . وقد جمح المختار هؤلاء فى محاولة جادة للقضاء على الفوارق بينهما واستغل القوى المختلفة من أجل بناء سلطانه الشخصى ، واتخذت المعارضة فى حركة المختار صورة الثورة الاجتماعية إلى جانب الثورة الدينية على الظلم والنظام القائم ، وتوجه سخط الموالى إلى الأرستقراطية العربية والفارسية ، فلم تكن الحركة قومية إذن ، وذلك لأن أصحاب الأرستقراطية من الفرس تقبلوا ضياع حقوقهم السياسية المؤقت لأنهم احتفظوا بوظائفهم وامتيازاتهم الاجتماعية والاقتصادية ، وكانوا يتعاونون مع العرب طالما أقروهم على امتيازاتهم فاستبدلوا حين دخلوا فى الإسلام الإسلام على المذهب السنى بالديانة الزردشتية أما من أسلم من فلاحيهم وعامتهم فقد استبدلوا بديانة زرادشت المذاهب

(١) برنادر لويس / العرب فى التاريخ / ص ٣٩ .

الإسلامية الخارجة على السنة معارضين عدوهم الذى كان مسيطراً عليهم من الفرس والذى أصبح مسيطراً من الحرب .

ويذهب بعض المؤرخين إلى أن التشيع كان من هذه الناحية مأوى لجأ إليه كثير من الساخطين والمتذمرين من أبناء القوميات الأخرى ، ولكنهم دخلوا فيه وغايتهم هدم الإسلام لعداوة أو لحقد ، أو لإدخال تعاليم آبائهم من اليهود والنصارى والزردشتيين والهنود ، وأيضاً كان بينهم من كان يريد استقلال بلاده والخروج على مملكته . وكل هؤلاء اتخذوا حب آل البيت ستاراً يضعون وراءه كل ما شاءت أهواءهم . وأن هؤلاء أدخلوا إلى التشيع كثيراً من الأفكار الدينية التى استقوها من معتقداتهم اليهودية والمسيحية والفارسية الأولى .

فاليهودية ظهرت فى الرجعة ، والنصرانية ظهرت فى القول بأن نسبة الإمام إلى الله كنسبة المسيح ، وقولهم إن اللاهوت اتحد بالناسوت فى الإمام ، وأن النبوة والرسالة لا تنقطع أبداً ، وتحت التشيع ظهر القول بتناسخ الأرواح وتجسيم الإله والحلول ، ونحو ذلك من الأقوال التى كانت معروفة عند البراهمة والمجوس ، وهكذا تستر الفرس بالتشيع وحاربوا الدولة الأموية وما فى نفوسهم إلا الكره للعرب ودولتهم والسعى لاستقلالهم ، ويمثل وجهة نظر هؤلاء المؤرخين المقريزى فى قوله : « واعلم أن السبب فى خروج أكثر الطوائف عن ديانة الإسلام أن الفرس كانت من سعة الملك وعلو اليد على جميع الأمم وجلالة الخطر فى أنفسها بحيث إنهم كانوا يسمون أنفسهم الأحرار والأسياد ، وكانوا يعدون سائر الناس عبيداً لهم ، فلما امتحنوا بزوال الدولة عنهم على أيدى العرب وكان العرب عند الفرس أقل الأمم خطراً ، تعاظمهم الأمر وتضاعفت لديهم المصيبة وراموا كيد الإسلام بالمحاربة فى أوقات شتى . . . فرأوا أن كيده على الحيلة أنجع فأظهر قوم منهم الإسلام ، واستمالوا أهل التشيع بإظهار المحبة لأهل البيت واستبشاع ظلم علىّ ، ثم سلكوا بهم مسالك شتى حتى أخرجوهم عن طريق الهدى »[1] .

---

(١) خطط المقريزى جـ ١ / ٣٦٢

وليس شك فى أننا نستطيع أن نفهم من قوله إن الموالى الفرس المغرضين هؤلاء قد استمالوا أهل التشيع أن التشيع كان موجوداً فى الدوائر العربية وأنه لم يكن أصلا فارسيًّا ، وليس شك أيضًا فى أن هذه نظرة سنية غالية متشككة وهى فى تشككها ليست إلا تعبيراً شعوبيًّا مغلفًا عما يكنه العرب من عداء للموالى لما فيها من تعميم وإطلاق فقد يكون بين من دخلوا فى حركة الشيعة مغرضون ، ولكننا نظلم الموالى إذا ما وصفناهم جميعًا بالإغراض ونظلم الحق أيضًا . فقد قدم الآلاف منهم أرواحهم فى سبيل تلك الغاية التى اعتنقوها .

ولكن من الطبيعى أن ينتج عن دخول أقوام مختلفى الجنسيات والأفكار والعقائد ترسب معتقداتهم فى الدين الجديد الذى اعتنقوه ، وهو أمر لا يستطيع أحد أن يحول بينهم وبينه ، فكل منهم يتلقى الإسلام من منظور وبمفهوم خاص يتأثر فيه بدون شك بما كان له من الأفكار والعقائد . وليس شك فى أن الإسلام قد تلون فى أفهامهم ووجدانهم ألوانًا شتى طبقًا لعقائدهم المختلفة .

ولا يقتصر الأمر على الفرس فى ذلك ، فبعض المؤرخين يزعم أن العقيدة الشيعية نبعت عن اليهودية أكثر مما نبعث عن الفارسية ، مستدلا فى زعمه بأن مؤسس العقيدة الشيعية عبد الله بن سبأ كان يهوديًّا [١] وأن الفكرة القائلة بأن النبى ملك يمثل سلطان الله على الأرض قد انتقلت من اليهودية إلى الإسلام [٢] .

والذى نراه ويدلنا عليه التاريخ أن التشيع لعلىّ قد بدأ قبل ابن سبأ ، وقبل دخول الفرس فى الإسلام ، ولكنه كان تشيعاً فى صورة ساذجة لا تخرج عن كون علىّ أولى من غيره بالأمر لكفايته الشخصية ولقرابته من النبى صلى الله عليه وسلم والعرب من قديم تفخر بالرياسة وبيت الرياسة . وقد رأينا كيف نشأ التشيع حرباً بعد وفاة النبى ، ونما بمرور الزمان وبالمطاعن على عثمان . ولكنه أخذ صورة جديدة بدخول العناصر الأخرى فى الإسلام من يهودية ونصرانية ومجوسية وأن كل هؤلاء

(١) الخوارج والشيعة ص ٢٤٤ .
(٢) الخوارج والشيعة ص ٢٤٥ .

كانوا يصبغون التشيع بصبغة عقائدهم القديمة ، فاليهود يصبغون التشيع صبغة يهودية ، والنصارى صبغة نصرانية ، والمجوس صبغة مجوسية ، فلليهود الزعم بالوصية مجاراة لزعمهم فى وصاية يوشع بن نون لموسى . ولهم أيضًا القول بالرجعة مجاراة لقولهم برجوع النبى إلياهو الذى رفع إلى السماء ، وإنه يعود إلى الأرض ليملأها عدلا [١] وأيضًا لقولهم إن النبى أخنوخ رفع إلى السماء حيًّا وكان قبل مولد السيد المسيح بثلاثة آلاف وثلثمائة واثنتين وثمانين سنة ، وللنصارى القول بأن فى على قبسًا إلهيًّا وذلك يشبه اعتقادهم فى اتحاد اللاهوت بالناسوت .

وهذه تأثيرات أجنبية واضحة، ولكن أبرزها دون شك هى التأثيرات الفارسية واليهودية وليس ذلك غريبًا ، إذ كان الموالى الفرس هم أكثر العناصر الأجنبية التى دخلت فى التشيع عدداً ، ولهذا كان للعنصر الفارسى أكبر الأثر فى فكر الشيعة ، كما كان ابن سبأ وهو أول أجنبى احتضن فكرة الشيعة يهوديًّا .

---

(١) سفر التكوين ٪ ٥ / ٢٤ ، سفر الملوك الثانى ٢ ٪ ١